سميح عاطف الزين

المسلِمُون
مَن هُمْ؟

قالَ رَسُولُ الله (صلى الله عليه وآله وسلم).

المسْلِمُ أَخو المسْلِم لا يَظْلِمُهُ وَلا يُسْلِمُهُ.

وَقَال: سِبابُ المسْلِم فُسُوقٌ وَقِتَالُهُ كُفْرٌ.

وفِي حِجَّةِ الوَداع أيْ فِي آخِرِ حجَّة حَجَّها رَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى بِيْتِ اللهِ الحَرامِ في مَكَّةَ المُكَرَّمَة.

دَعَا المُسْلِمِينَ جَمِيعًا لِمُمَارَسَةِ وَتَطْبِيقِ الشَّرِيعَةِ الإسْلاَمِيَّةِ مُرَكِّزًا عَلَى نُقْطَةٍ مُهِمَّةٍ تُعَدُّ مِنْ أَهَمّ النّقَاطِ لِصِيَانَةِ المُجْتَمعِ وَتماسُكِهِ وَوَحْدتِهِ وَهيَ: نَبْذُ الخُصومَةِ، وَعَدَمُ الاعْتِدَاءِ فِي مَا بَيْنَهُمْ، وَمُحافَظَةُ بَعْضِهِمْ عَلَى حُرْمَةِ بَعْضٍ، فَقَالَ:

أيُّ بَلَدٍ هذا، أَلَيْسَتْ بالبَلْدَةِ الحَرامِ؟

قُلْنَا بَلَى يا رَسُولَ اللهِ: قَالَ: فَإنَّ دِماءَكُمْ وَأَمْوالَكُمْ وَأعْرَاضَكُمْ وَأبْشارَكُمْ[1] عَلَيْكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هذَا، فِي بَلَدِكُمْ هذا أَلاَ هَلْ بَلَّغْتُ؟ قُلْنَا: نَعَمْ يا رَسُولَ اللهِ. قالَ: اللَّهُمَّ اشْهَدْ فَلْيُبَلِّغ الشاهِدُ الغَائِبَ فإنَّهُ رُبَّ مُبَلَّغ يُبَلِّغُهُ هُوَ أَوْعَى لَهُ فكانَ كذلِكَ: قالَ: لا تَرْجِعُوا بَعْدِيَ كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ.

[1] أبشار جَمْع بَشَر، وبَشَرَ جَمْع بَشَرةٍ والبَشَرَةُ هي أعلى جِلدَةِ الرأسِ والوَجهِ والجسَدِ مِنَ الإنسانِ. فيكون بهذِهِ الوصيّةِ قد حَرَّمَ على المسْلِمِ أن يخدشَ جِلْدَ أخيه المسْلِمِ.

المقدّمة

من هم المسلمون حقًّا؟

هلِ الَّذينَ ينتسبونَ إلى الإسلامِ انتسابًا، هُم المسلمونَ؟

هلِ الَّذِينَ يَدَّعُونَ الإِسلامَ ادّعاءً ولا يلتزمُونَ بهِ، هُمُ المسلِمونَ؟

هلِ الَّذينَ يُخَاصمونَ في الدِّينِ الإِسلاميِّ ويُقسِّمونَ أَنفُسَهُمْ طوائف وشِيَعًا وفِرَقًا وأحْزابًا طوائفَ، كلُّ حزبٍ بما لديهمْ فَرِحونَ؛ عاملونَ بالإِسلامِ؟

علينا أَن نُفَرِّقَ بعدَ اليومِ بينَ الإِسلامِ والمسلمينَ.

فالإِسلامُ هو اسمُ الدين السماوي الذي ارتضاه الله سبحانه للناس لقوله تعالى: {إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ} [آل عمران: 19] وكلّف النبي محمدًا (صلى الله عليه وآله وسلم) بإيصاله إلى العقول والقلوب. وهو الدين الذي يتضمن العقيدة والنظام كما نجدهما في القرآن الكريم ونتلمسهما في السنّة النبوية الشريفة. وَأَمَّا المسلمونَ فَهُمُ الَّذين يعتنقون الإسلام عقيدة ويطبّقونه على أَنفسِهِمْ وفي تعاملهم مع الغير بالعمل الصالح وَيَدْعُونَ سواهُمْ إلى تَطْبيقِهِ بالحكمةِ والموعِظَةِ الحسنةِ ويقولُون بعدها إِنَّنا منَ المسلمين لقولِهِ تعالَى: {وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ} [فصلت: 33].

وَأمّا من يقومُ بالقبائحِ والمعاصِي ويدعُو إلى التفرقةِ بينَ المسلمينَ والمحافظَةِ على بقائِهِم كطوائفَ متعدّدةٍ حتَّى يحقق غايات محض دنيوية كأن يكون لَهُ نصيبٌ مادّيٌّ أو مركزٌ مرموقٌ يُرِيدُ أَنْ يحافِظَ عليهِ في هذِهِ الطَّائِفةِ أَو تلكَ، فَهذَا وَأَمْثَالُهُ بَريءٌ مِنْهُمْ الإِسلامُ وَنَبِيُّ الإِسلامِ مُحَمَّدٌ (صلى الله عليه وآله وسلم) وبَريءٌ مِنْهم القرآنُ الكريمُ لقولِهِ تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ} [الأنعام: 159] أَيْ لَسْتَ مِنْهُمْ يَا مُحَمَّدُ.

نحنُ المسلمينَ اليومَ نَعيشُ في أَواخِرِ القرنِ العشرينَ ونُشاهِدُ الأُمَمَ تسعَى لجمعِ كَلِمتها حتَّى يكون لكلٍّ منها سيادتها ومكانتها على وجهِ هذه الكرةِ الَّتي نحيَا على ظهرِهَا مُتنَافِسينَ: فهذِهِ الدُّولُ الأُوروبيَّةُ رأَتْ أَنَّ العالَمَ يحكمُهُ دولتان عملاقَتَانِ مُتَنَافِسَتَانِ عَلَى التَّحَكُّمِ، واستغلالِ الشُّعوبِ المَزَّقَةِ والشُّعوبِ المسْتَضْعَفَةِ. فعمدت عَنْ طَرِيقِ ساسَتِها ومُفَكِّرِيها لجمْعِ كلمةِ أُوروبا حولَ أَهدافٍ مُشتَرَكةٍ تعودُ بالمصلحةِ على جميعِها، فاسْتَطَاعَت بعد الانهيارِ الاقتصاديّ، والتأخُّرِ التكنولوجيّ، اللَّذَيْنِ أَصابَا بلادَها بعد الحرب العالميَّةِ الثَّانيةِ أَنْ تثبتَ أَمامَ المنافسةِ التِّجاريَّة القويَّةِ الَّتي غَزَتْ فيها أميركا العالَمَ، وأن تعود فتتبوأ المركزَ اللائِقَ بها عالميًّا.

وَأَمَّا العربُ ــ وهم في الغالبية الساحقة مسلمون ــ فَقَدْ أَصبحتْ لهم في أَواخِرِ السّبعينياتِ مِنَ القرنِ الشعرينَ اثنتانِ وعشرونَ دولةً منضمّةً إلى الجامعةِ العربيّةِ، وهم منشقُّونَ داخلَها وخارجَها، يكيدُ بعضُهُمْ لبعضٍ، ويفتّتونَ ثرواتِهِمْ، ويشرّدُونَ رعايَاهُمْ، ويَقْتُلُونَ أبناءهُمْ، وبهذا يُسَاعِدُونَ أَعداءَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ.

عودةً أَيها المسلمُ إلى قرآنِكَ الَّذي يدعُوكَ إلى التآخي لا البغضاءِ. وإلى الاجتماع لا التَّفرقةِ، واستمعْ إلى قولِهِ تعالَى: {وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا} [آل عمران: 103]. واعلَمْ أَنَّ بِالاجتماعِ وَالإِخاءِ يكونُ التَّحابُّ وَالنَّصرُ وَبِالتَّفْرِقَةِ وَالبَغضاءِ يكونُ الخذلانُ والقهرُ، وضَعْ نُصْبَ عَيْنَيْكَ قولَهُ تعالَى: {وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ} [الأنفال: 46].

وَلا أُخْفِي عليكَ أَيُّهَا القارئُ الكريمُ أَنَّ الَّذي دَعَانَا لِتأْليفِ هذا الكتابِ هُوَ التَّفرقةُ العمياءُ التي ما زالت تعمُّ العالم الإسلامي وأَخصها التَّفرقةُ الواقعةُ بينَ المسلم الشِّيعيّ وأخيه المسلمِ السُّنِيّ وَالَّتِي أورثتها عصور من الجهل والأَنانية وكان يجب أن تزول بزوال أسبابها البعيدة وأن تتبخّر مع تبخر الجهل وحلول الوعي محلّه ولكنْ مَعَ الأَسفِ ما زالَ لها بعضُ الجذورِ في النُّفوسِ المريضةِ. لأَنَّ غرْسَهَا كانَ محكمًا مِنْ قِبَلِ الفئةِ الَّتي حكمت العالَمَ الإسلاميَّ على أَساسٍ منَ التَّفْرِقَةِ، وَمِنَ الدسَّاسينَ أَعداءِ هذا الدّينِ، وَمِنَ المنتفعينَ الَّذينَ أَبَوْا أَنْ يعشُوا إلا كما تعيشُ الطُّفيليَّاتُ على دماء الغير.

وسأَسرُدُ لكَ في هذا الكتبِ يا أَخي المسلمَ أَهمَّ حقائقِ الاختلافِ بينَ السُّنةِ والشِّيعَةِ والَّتي لم تكنْ يومًا من الأَيَّام اختلافًا على الكتابِ والسّنّةِ، بل كانت اختلافًا في فهمِ الكتابِ والسنَّةِ.

ولا تعجبْ، يا أَخي المسلمَ، إذا قلتُ يا أَخي المسلمَ الشيعيَّ، لأَنَّ المسلمينَ جميعًا هُمْ حقيقةً ومن دونِ شكٍّ شيعةُ النَّبِيِّ (صلى الله عليه وآله وسلم) وأَهلِ بيتهِ، ولا تعجبْ كذلك إذا قلتُ يا أَخي المسلمَ السنيَّ، فالمسلمونَ جميعًا هُمْ حقيقةً ومن دون ريبٍ على سنَّةِ رسولِ اللهِ (صلى الله عليه وآله وسلم) ولا أَحدَ من المسلمينَ ينكُر الشِّيعةَ والسُّنةَ على هذا النَّحو.

أَما وَقَدْ أَصبَحَتْ كلمةُ الشِّيعةِ وكلمةُ السُّنةِ تعنيانِ التَّفرقةَ والطائفيَّةَ البغيضةَ فإنَّنَا نُنْكِرُهما ونَبْرَأُ مِنْهما أَمامَ اللهِ ورسولِهِ ونعودُ إلى قولِهِ تعالى: {إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ} [فصلت: 33] مُقتصرينَ على هذا القولِ أَنَا مسلمٌ ولا زيادةَ عَلى هذه التَّسْمِيةِ ولا نقصانَ.

وأَيضًا لا يجوزُ لنا أَنْ نقولَ الطائفةُ السُّنيةُ أَو الطائفةُ الشيعيَّةُ لأَنَّنَا نحنُ المسلمينَ لسنَا بطائفيّين بَلْ نحنُ أُمَّةٌ إسلاميَّةٌ واحدةٌ كما وَصَفَنا اللهُ تعالى بقوله: {وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ} [المؤمنون: 52].

سميح عاطف الزين

الوَصِيّة وَالبَيْعَة

إن المسلمينَ الشَّيعةَ الإماميَّةَ يقولونَ إنَّ الخلافَةَ وصيَّةٌ مِنْ عندِ اللهِ، ويجبُ أَنْ تكونَ لمعصومٍ، ولا يجوزُ أَنْ تكونَ لأَيِّ شخصٍ غيره مِنَ المسلمينَ، والإمامُ الوصيُّ بَعْدَ النبيِّ (صلى الله عليه وآله وسلم) هُوَ عليُّ بْنُ أَبي طالبٍ سلامُ الله عليهِ، وقد استشهدُوا على ذلكَ بأَدلَّةٍ كثيرةٍ من الكتابِ والسُّنَّةِ، ثمَ ابنُهُ الحسنُ منْ بَعْدِهِ ثمَّ الحسينُ ثمَّ عليٌّ زينُ العابدينَ ثمَّ محمدُ الباقرُ، ثمَّ جعفرٌ الصَّادقُ، ثمَّ موسَى الكاظمُ، ثمَّ عليٌّ الرضا، ثُمَّ محمدٌ الجوادُ، ثمَّ عليٌّ الهادي، ثمَّ الحسن العسكريُّ، ثمَّ محمد المهديُّ المنتَظَرُ، وقد غُيّبَ ولا يزالُ يُنتظرُ، وهو الَّذي سيقيمُ العدلَ في آخرِ الزَّمانِ. وقالُوا إنَّ الإمامةَ ليستْ بأَمرٍ دنيويٍّ، لكنَّهَا ركنٌ من أَركانِ الدِّينِ، وهيَ منصبٌ إلهيٌّ كالنبوّةِ، فكما أَنَّ اللهَ سبحانَهُ يختارُ مَنْ يشاءُ مِنْ عبادِهِ للنبوّةِ والرِّسالَةِ فكذلكَ يختارُ للإمامَةِ مَنْ يشاءُ ويأَمُرُ نَبِيَّهُ بالإعلان عن الإمام وتنصيبه على الناس من بعدهِ للقيامِ بالوظائِفِ الَّتي كانَ عَلَى النبيِّ (صلى الله عليه وآله وسلم) أَن يقومَ بها. وهكذا كان شأن جميع الأنبياء من أولي العزم، فقد نصُّوا على أوصيائهم واحدًا بعد واحد، منذ أبينا آدم حتى نبينا محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)، لا ينازع في ذلك أحد. إلا إنَّ الإمامَ لا يوحَى إليه كالنبيِّ وإنما يتلقَّى الأَحكامَ منهُ مَعَ تسديدٍ إلهيٍّ، فالنبيُّ مُبَلِّغٌ من الله وَالإمامُ مُبَلّغٌ عن النَّبيِّ، وَالإمامةُ عند الشيعةُ = كما هي عند بقية الأمم = متسلسلةٌ في اثْني عَشَرَ إمامًا كلُّ سابقٍ ينصُّ على اللاحقِ. ويُشتَرطُ أن يكونَ معصومًا كالنبيِّ عنِ الخطإِ وعنِ الخطيئةِ. والعصمة تعني في اللّغَةِ الحفظَ. أي الحفظ مِنَ الدّنسِ والرّجسِ والمعصيةِ لِقولِه تعالَى: {إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا} [الأحزاب: 33]. وبناءَ على كُلِّ هذَا تكونُ الخلافةُ آتيةً عن طريقِ السَّماءِ لا عنْ طريقِ الأُمَّةِ، بلْ على الأُمَّةِ أَنْ تُبَادِرَ لمبايعةِ الوصيِّ الَّذي وصَّى اللهُ لَهُ بالخلافةِ عنْ طريقِ النَّبيِّ (صلى الله عليه وآله وسلم).

والمسلمونَ السُنَّةُ يقولونَ إنَّ الخلافةَ لا يتبوَأُها إلا مَنْ تمتْ له البيعةُ مِنَ المسلمينَ لأَنَّ السُّلطانَ للأُمةِ وهي تختارُ مَنْ تَشَاءُ لِرعايةِ شؤُونها، وَلا يَرَونَ أَنَّ هناكَ وصيَّةً وَصَّى اللهُ بهَا لأَحَدٍ مِنَ المسلمينَ، بَلْ كانَ هناكَ تلميحاتٌ مِنَ الرَّسولِ (صلى الله عليه وآله وسلم)، لبعضِ الصَّحابةِ: أَحيانًا لأَبي بكرٍ أَنْ طلبَ منهُ أَنْ يؤمَّ المسلمينَ في الصَّلاةِ، وأَحيانًا لعليّ بْنِ أَبي طالِبٍ أَنْ طلبَ منهُ أَنْ ينقُلَ الوحيَ إلى مَكَّةَ في أَثناءَ تولِّي أَبي بكرٍ إمارةَ الحجِّ بتكليفٍ منْ رسولِ الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، وأحيانًا لعمرَ بْنِ الخطَّابِ بالثناءِ عليه أَمامَ الصّحابَةِ.

وانقسَم المسلمونَ أَمامَ هذَيْنِ الرَّأْيَينِ، فَإِذَا كانَ القَولُ إنَّ الوصيَّةَ لاثنَيْ عَشَرَ إمامًا أَوَّلُهم عليٌّ سلامُ اللهِ عليهِ وآخرُهُمْ محمّدٌ المهديُّ بْن الحسنِ العسكريُّ عليه السلام، فأحد عشر إمامًا انتقلوا إلى جوار ربّهم وكان آخرُهُم الحسن العسكري الَّذي انتقلَ إلى جوارِ رَبّهِ في أواخِرِ القرنِ الثالثِ الهجريّ، وأما الإمامُ الثاني عَشَرَ وهو الإمامُ المهديُّ فقد غابَ بعدَ وفاةِ أَبيهِ بقليلٍ، أَيْ وُلدَ الإمامُ المهديُّ المنتظرُ سنة 255 هجرية، وقد ماتَ أَبُوهُ الحسن العسكريُّ وهو ابنُ خمسِ سنواتٍ أو ست سنوات على الأصح. وقد غابَ وهوَ لم يبلغِ العاشرة من عمرِهِ.

والمسلمونَ جميعُهم في جميع أَقطارِ الأرضِ ينتظرونَ ظهورَ إمامٍ يخرجُ في آخرِ الزَّمانِ من ذريَّةِ الرسولِ (صلى الله عليه وآله وسلم) يملأُ الدُّنيا قسطًا وعدلًا بعدَ أَن تكونَ مُلِئَتْ ظلمًا وجورًا، ويدعُونَ الله سبحانَهُ وتعالى كي يُعجِّلَ بخروجِهِ.

فعلامَ الاختلافُ أَيها المسلمونَ على الخلافة، هَل هِيَ وصيَّةٌ أَمْ بَيْعةٌ؟

فالموصَى لهمُ الأَئِمَّةُ الكرامُ والمبايعون من الأمة قد انتقلُوا جميعهم إلى جوارِ الله عزَّ وجلَّ منذُ أكثر من ألفِ عامٍ. وأَمّا الإمامُ المنتظرُ خروجُهُ أو ظهورُهُ فإِنَّنا متفقُونَ جميعًا على موالاتِهِ والسَّيرِ مَعَه ما دام سيحكم بكتاب الله ويسير على سنّة نبيه الكريم.

عودة إلى التَّفكيرِ أَيها المسلمُون!

الخِلافاتُ بَين المسلِمينَ وَأَثَرها

وَرِثْنَا في هذا العصرِ التفرُّقَ المذهبيَّ، حتَّى أَخَذَ بعضُنا يُكَفِّرُ بعضَنا الآخَرَ مِنْ غيرِ حُجَّةٍ ولا بَيِّنَةٍ، وصارتْ للآراءِ والأَفكارِ والأَحكامِ عصبيَّةٌ تُشبهُ العصبيَّةَ الجاهليَّةَ. فابنُ الشيعي شيعيٌّ، وابنُ السُّنيِّ سُنِّيٌّ يتوارثُ المذهبَ والعصبيةَ كما يتوارثُ الجسمَ واللَّونَ مِنَ الأبِ إلى ابنِهِ، وأصبحتْ كلُّ طائفةٍ كأَنَّهَا جنسٌ قائمٌ بذاتِهِ. ومَنْ أَخذَ حكمًا شرعيًّا مِنْ غيرِ مذهبِهِ لأَنَّهُ اقتنعَ بقوةِ دليلِهِ يكونُ مثلُهُ بنظرِ الجاهلينَ مِنْ هذهِ الأُمَّةِ كَمَثَلِ الَّذي يُغَيِّرُ دينَهُ، أَو يرتدُّ بَعْدَ إِيمانٍ. وعلى امتدادِ هذَا الجهلِ والانحطاطِ والتعصُّبِ بدأَ أَهلُ كلِّ مذهبٍ يظُنُّ أَنَّ مذهبَهُ تُراثٌ لهُ فقطْ، وليسَ تراثًا للدِّينِ الإِسلامِيِّ والمسلمينَ، وإِنِ عَدَّهُ تراثًا للإِسلامِ والمسلمينَ فإِنَّهُ يجزمُ بعدَ اعترافِهِ هذا بأَنَّ مذهَبَهُ هُوَ الَّذِي يقوم على الدّينِ الإِسلامي الصَّحيحِ فقطْ، وما عداهُ هُوَ انحرافٌ لا يُؤْخَذُ به، وضلالٌ وزيغٌ يجب الابتعادُ عنهُ.

وبهذا التفرّقِ السّياسي والمذهبيّ ضاعَ المسلمون وتفتت قواهم وأذلَّهم أعداؤهم.

وإِذَا كانَ الاختلافُ قد أَثَّرَ ذلكَ التَّأْثيرَ في الوحدة فإِنَّهُ لا بدَّ لنَا عندَما نتَّجهُ إِلى التَّجمُّعِ والاتحادِ بتفكير سليم، ونية صادقة، من أَنْ نُزيلَ ذلكَ الاختلاف.

والاختلافُ الَّذي وقعَ فيهِ المسلمونَ حقيقةً يُقْسَمُ قسمينِ:

أحدهُما: خلافٌ في السِّياسةِ عبر الماضي وهو الذي أَوجدَ الفرقةَ والانقسامَ، ونحنُ اليَوم لا ندري لأي غاية ما زلنا وفي سبيل أي مصلحة؟!.. نتوارثُ ذَلكَ الخلافَ.

فالشيعَةُ يفسِّقُونَ مَنْ لا يفضِّلَ عليًّا على باقي الصَّحابِة. وَالسنَّةُ يحكمونَ بالضَّلالِ على مَنْ يقدِّمُ عليًّا على أبي بكرٍ وعمرَ وعثمان. ويشتدّ النُقاشُ، ويدورُ الجدلُ في موضوعٍ لا يُنْتِجُ عملًا.

وقديمًا قيلَ: الاشتغالُ بعلمٍ لا يُنْتِجُ عملًا فَهُو عَبَثٌ.

والقسمُ الثَّاني: خلافٌ في الفروعِ الفِقهيَّةِ أو على الأصحّ تنوّع في التفكير الفقهي من شأنه أن يُوسّعَ آفاقَ الدِّراسةِ، ولا يجوزُ للمُسلمينَ أَنْ يُزيلُوهُ لأَنَّهُ تنوعٌ يُغْنِي التراث الإسلاميّ.

وإذا نظرَ الناقِدُ البصيرُ نظرةَ فاحصٍ موازنٍ في الاختلافاتِ الفقهيَّةِ بين المذاهبِ الأربعةِ لا يجدُ فرقًا كبيرًا بينَ المذهبِ الجعفريّ والمذهبِ الحنفيّ كما هُوَ حاصلٌ بَيْنَ المذهبِ الشَّافعيّ والمذهبِ الحنفيّ، وخصوصًا إذا عرفَ القارئُ أَنَّ الإمام أَبا حنيفةَ والإمامَ مالكًا درسَا عندَ الإمامِ جعفرٍ الصّادقِ رَضي اللهُ عَنْهُمْ جميعًا.

وسأَنقلُ لكَ أَيُّهَا القارئ الكريمُ بعضَ الأَمثلةِ الَّتي تدلُّ على ذلكَ والتي هِيَ قليلٌ مِنْ كثيرٍ.

(1) ثُبُوتُ الهِلال:

قالَ الحنفيَّةُ والمالكيَّة والحنابلَةُ: متى ثبتتْ رُؤيَةُ الهِلال بِقُطْرٍ وجبَ ثبوتُهَا على أَهلِ سائرِ الأَقطارِ مِنْ غيرِ فرقٍ بينَ القريبِ والبعيدِ، ولا عبرةَ باختلافِ مَطلعِ الهلالِ. واتَّفقَ الإماميَّةُ والشَّافعيَّةُ عَلى أَنَّهُ إِذَا رأَى الهِلالَ أَهلُ بلدٍ، وَلَمْ يَرَهُ أَهلُ بلدٍ آخرَ، فَإِنْ تقارَبَ البَلدانِ في المطلعِ كانَ حكمهما واحدًا، وإن اختلفَ المطلعُ فلكلّ بلدٍ حكمُهُ الخاصُّ.

(2) الأَذَانُ:

قالَ الحنفيَّةُ والشَّافعيَّةُ والإماميَّةُ: الأَذانُ سنَّةٌ مُؤكدَةٌ. وقالَ الحنابلة: هُوَ فرضُ كفايةٍ في القُرى والأَمصارِ للصلواتِ الخمسِ على الرِّجالِ في الحضرِ من دون السَّفرِ.

وقال المالكيَّةُ: يجبُ كفاية في البلدِ الَّذِي تُقَامُ بِهِ الجُمعَةُ، فإذا تركَ أَهلُهُ الأذانَ قُوتِلُوا على ذلكَ.

(3) الزَّوَاجُ:

اتَّفق الإماميَّةُ والحنابلةُ والشَّافعيَّةُ على أَنَّه لا يصحُّ عَقْدُ الزَّواجِ بالكتابةِ إذا كانَ الزّوجُ والزَّوجةُ قَادِرَيْنِ على الكلامِ (أَيْ إِذَا لم يكنْ أحدهُما أَخرس).

وقالَ الحنفيّةُ: يصحُّ إِذَا لَمْ يكنِ الخاطبُ والمخطوبةُ في مكانٍ واحد.

وقد اتفقُوا جميعًا على أَنَّ الأَخرسَ يُكْتَفَى منهُ بالإشارةِ الدَّالَّةِ على قصدِ الزَّواجِ صراحةً إِذا لم يحسنِ الكتابةَ، وإِنْ أَحسنَها فَالأَوْلى الجمعُ بينَها وبَيْنَ الإشارةِ.

(4) مَهْرُ المرْأَةِ:

اتَّفَقَ الإماميَّةُ والحنفيَّةُ عَلَى المهرَ ملكٌ خاصٌّ للزَّوجةِ وحقٌّ مِنْ حقُّوقِهَا تفعلُ بهِ ما تشاءُ من هبةٍ أَوْ شراءِ جهازٍ أَوْ تحتفظُ بهِ لنفسِهَا، وَلا يحقُّ لأَحدٍ معارضتُهَا فيهِ، وكلُّ ما تحتاجُ إليهِ مِنْ مَتَاعٍ فهوَ عَلَى الزَّوجِ وحدَهُ، وليستْ هِيَ مُلزَمَةً بشيءٍ منهُ، لأَنَّ النَّفَقَةَ بجميعِ أَنواعِهَا تُطْلَبُ مِنَ الزَّوجِ بخاصةٍ.

وقالَ المالكيَّةُ: عَلى الزَّوجةِ أَنْ تشتري ممَّا تقبضُهُ مِن مهرِهَا كلَّ مَا جرتْ بهِ عادةُ أَمثالها مِنَ الجِهاز.

وقالَ الشَّافعيَّةُ: إِذَا اختلفَ الزَّوجانِ في متاعِ البيتِ فَهو بَينَهُما.

(5) السَّفيهُ:

السَّفيه هُوَ الَّذي لا يُحْسِنُ إدارةَ أَموالِهِ (أَيْ هُوَ المهْمِلُ المبَذِّرُ). اتَّفَقَ الفقهاءُ جميعًا ما عَدا أبا حنيفةَ على أَنَّ السَّفيهَ يُحْجَرُ عليهِ في خصوصِ التَّصرفاتِ الماليَّةِ، وأَنَّ شأْنَهُ في ذلكَ شأْنُ الصبيِّ والمجنونِ، إلا إِذَا أَذنَ لَهُ الوَلِيُّ. ولهُ مُطلقُ الحريَّةِ في التَّصرفاتِ الَّتي لا تتَّصلُ بالمالِ مِنْ قريبٍ أَوْ بعيدٍ، والسّفيهُ لا يُفَكُّ عنهُ الحجرُ حتَّى يَبْلُغُ، ويُعْلَمَ منهُ الرُّشْدُ لقولِهِ تعالَى في سُورة النِّساء: {وَلاَ تُؤْتُواْ السُّفَهَاء أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا (5) وَابْتَلُواْ الْيَتَامَى حَتَّىَ إِذَا بَلَغُواْ النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُواْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ} [النساء: 5 ـ 6].

وبهذا قالَ الإماميَّة والشَّافعيَّةُ والمالكيَّةُ والحنابلة وأَبُو يوسفَ ومحمّدٌ صاحبا أَبي حنيفة.

وقالَ أَبُو حنيفةَ: إِنَّ الرُّشْدَ ليسَ شرطًا في تسليمِ الأَموالِ لأَصحابها ولا في صحّةِ تصرفاتِهِمْ الماليّةِ: فإِذَا بلَغ الإنسان رشيدًا ثمَّ عرضَ لهُ السّفهُ تصحُّ تصرّفاتُهُ ولا يجوزُ التَّحجيرُ عليهِ حتَّى وَلَوْ كانتَ سنُّهُ دونَ الخامسةِ والعشرينَ، وكذلكَ منْ بَلَغَ سفيهًا بحيثُ يتَّصلُ السّفهُ بالصّغرِ لا يُحْجَرُ عليهِ بحالٍ بعد بُلُوغٍ.

هذه بعض الأمثلة الواضحة الدالّة على اختلاف الرأي بحسب ما رأى الإمام الفقيه وتوصل إليه اجتهاده، من دون أن يكون في اختلاف الرأي هذا تفرقة بين سنّةٍ وشيعةٍ مصطنعتين، ومن دون أن يؤثر هذا الاختلاف في العقيدة التي يبقى لها مصدران أساسيان يعتمدهما المسلمون وهما: الكتاب والسنّة.

وبعد بيان تلك الأمثلة إليكم شرحًا موجزًا عما أسميناه اختلافًا سياسيًّا وتنوعًا فكريًّا فقهيًّا.

لقد حدث في مسار التاريخ الإسلامي أمران:

أحدهما الفتنة التي حصلت عن مقتل عثمانَ رضي الله عنه، والثاني المناظراتُ التي حصلَتْ بين العلماءِ، فنجم عن ذلكَ اختلافٌ في أَنواعِ الأَدلَّةِ الشرعيّةِ أَدّى إلى وجودِ أَحزابٍ سياسيّةٍ جديدةٍ، كما أَدَّى إلى وجودِ مذاهبَ فِقهيَّةٍ متعدِّدةٍ. وقد نشأ ذلك بوضوحٍ بعدما قُتلَ عثمانُ بنُ عفَّانَ رضي الله عنهُ. وبويعَ بالخلافةِ عليّ بن أبي طالبٍ سلامُ اللهِ عليهِ، ونازعهُ عليها معاويةُ بنُ أَبي سفيانَ. واشتعلتِ الحربُ بينَ القريقينِ، وانتهتْ إلى تحكيمِ الحكَمَينِ = عمرو بن العاص وأبي موسى الأشعري في معركة صفين وقد نجم عن ذلكَ نُشوءُ أحزابٍ سياسيةٍ جديدةٍ لمْ تَكُنْ من قَبلُ. وصارتْ لهذهِ الأحزابِ آراءٌ جديدةٌ. وقدِ ابتدأ الرأْيُ سياسيًّا بشأْنِ الخليفةِ والخلافةِ، ثمَّ شملَ الأَحكامَ، أَو كثيرًا منها.

نشأَتْ جماعَةٌ منَ المسلمينَ شَجبتْ سياسةَ عثمانَ في خلافتهِ، ونقمتْ على عليّ قبولَهُ التحكيمَ، وعلى معاويةَ تولّيَهُ الخلافةَ بالقوّةِ، فخرجتْ عليهمْ جميعًا. وكانَ رأْيُهُمْ أَنَّ الخلافةَ بيعةٌ اختياريّةٌ يقومُ بها المسلمونَ نحوَ الخليفةِ بمحضِ اختيارِهِمْ من دونِ إكراهٍ ولا إجبارٍ، وكلّ مَنْ توافرَتْ فيهِ الكفايةُ للخلافةِ يصِحُّ أَنْ يكونَ خليفة يبايعهُ المسلمون، وعندئذٍ تنعقدُ الخلافةُ لهُ ببيعتهِ ما دامَ رجلًا سياسيًّا مسلمًا عدلًا ولو كانَ عبدًا حبشيًّا، ومن آرائِهِمْ أَنَّ طاعةَ الخليفة واجبةٌ إذا كانَ أَمرُهُ في حدودِ الكتابِ والسنَّةِ ، وإذا تجاوزَهُما فلا طاعةَ لهُ.

وهؤلاء ــ وهم الخوارجُ ــ لا يأْخذونَ بالأَحكامَ التي وردتْ في الأَحاديثِ التي رواها عثمان أو عليٌّ أَو معاويةُ أَوْ صحابيّ ناصرَ واحدًا منهمْ وروَى أحاديثَهُمْ وآراءَهُمْ وفتاويهمْ، ثمَّ رجّحوا كلَّ ما رُويَ عَمَّنْ يرضَوْنَ عنهُ وعدّوا رأْيَهُ ووثقُوا بعلمائِهِمْ من دونِ غيرهم. ولهمْ فِقهٌ خاصٌّ.

أَمَّا الجماعةُ الثانيةُ منَ المسلمينَ ــ وهيَ الشيعةُ ــ فقد تمسكت بالنص ووالت عليّ بْنَ أَبي طالبٍ سلامُ اللهِ عليهِ، ووالت ذرَيتهُ ورأَتْ أَنَّهُ هو وذرّيتهُ أَحقُّ بالخلافةِ من كل أحدٍ. وأَنهُ هو الذي أَوصى إليه الرّسولُ بالخلافةِ منْ بعدِه.

وقد روَوْا أَحاديثَ كثيرةً نَقَلَها عنِ الرسولِ جمهورُ الصحابةِ. ولم يُعوّلوا على آراءِ بعضِ الصحابة، بلْ على الأَحاديث التي رَواها آلُ البيت أنفسهم (سلامُ اللهِ عليهم) ومَنْ ناصَرَهم واقتدى بهم مِنَ الصّحابةِ (رضوانُ الله عليهم)، كما عوّلوا على الفتاوى التي صدرَتْ عنهم. وكانَ لهمْ فِقْهٌ خاصّ. وأَمّا الجماعة الثَّالثةُ وهي السُّنةُ فقد رأَتْ أَنَّ الخليفةَ يجبُ أَن يكونَ منْ قريشٍ إن وُجدَ، وهُمْ يحملون كلَّ إكبار ومحبةٍ لجميع

الصحابةِ من دون استثناء، ويؤوّلون ما كان بينهم من خصومات بأنها كانت خصومات اجتهاديةً في أحكامٍ شرعيةٍ ظنيّةٍ، لا ترتبطُ بكفرٍ أو إيمانٍ. وكانوا يحتجّونَ بكلّ حديثٍ صحيحٍ رواهُ صحابيٌّ بلا تفريقٍ بينَ الصحابةِ، لأنهم يعتقدونَ أن أصحابَ النبيّ كلَّهم عدولٌ ويأْخذون بفتاوى الصحابة وآرائِهِمْ.

وهذا الاختلافُ جعلَ أحكامَ الفئاتِ الثَّلاثِ لا تتفقُ مع بعضها في عدّةٍ موضوعاتٍ لاختلافِها في الحكمِ وفي طريقةِ الاستنباطِ، وفي أنواعِ الأَدلَّةِ.

ومن ذلكَ يتبينُ أَنَّ الفتنةَ التي حصلتْ، أَوْجَدَتْ حالةً سياسيّةً وفِقْهِيَّةً أَدّتْ إلى اختلافٍ كانَ لهُ أَثَرُهُ في التاريخِ، لكنَّهُ لم يكن اختلافًا على الشريعةِ، وإنما كانَ اختلافًا في فَهْم الشريعةِ.

لذلكَ كانَ المختلفون جميعُهُمْ مسلمينَ، وإن تجاوزَ اختلافُهُمْ الفروعَ والأَحكامَ إلى الأصول والأَدلَّةِ وطريقةِ الاستنباطِ.

وأَمَّا المناظراتُ الَّتي حصلتْ بينَ العلماءِ فقدْ أَدّتْ إلى اختلافاتٍ فقهيّةٍ ولمْ تؤدِّ إلى اختلافاتٍ سياسيّةٍ، لأَنها لمْ تكنِ اختلافًا في الخليفةِ الخلافةِ ونظامِ الحُكْمِ. وإنَّما كانَتْ اختلافًا في الأَحكامِ وطريقةِ استنباطها، لذلكَ كانَ بعضُ المجتهدينَ يرى أَنَّ الأَدلَّةَ الشرعيّةَ لا تتعدّى الكتابَ والسّنَّةَ والإجماعَ والعقلَ. واعتبار هذين الدليلينِ الآخرين: الإجماع والعقل، من حيثُ رجوعُهُما إلى الكتابِ والسنَّةِ، كاشفًا عن وجود دليلٍ شرعيّ. وهذا هوَ فقهُ الشِّيعةِ الإماميةِ أَيْ مذهبُ الإمام جعفر الصّادقِ عليهِ سلامُ الله. وبعضُهُمْ يرى أَنَّ الأَدلَّةَ الشرعيّةَ هيَ الكتابُ والسنَّةُ والإجماعُ والقياسُ والاستحسانُ ومذهبُ الصحابيّ وشرعُ مَنْ قبلنَا، وهذا هُوَ مذهبُ الإمام أبي حنيفَةِ رضي اللهُ عنهُ. وبعضُهم يَرَى أَنَّ الأَدلَّةَ الشَّرعيَّةَ هيَ الكتابُ والسُّنَّةُ والإجماعُ والقياسُ وهَو مذهبُ االإمامِ الشَّافعيّ رضِي اللهُ عنهُ. ومنهُمْ مَنْ يَرى أَنَّ الأَدلَّةَ هيَ الكتابُ والسنَّةُ والقياسُ والمصالحُ المرسلَةُ وهذا هُوَ مذهبُ الإمامِ مالكٍ رضيَ اللهُ عنهُ.

نلاحظُ أَنَّ فقهَ الإمامِ جعفرٍ يخلُو مِنَ القياسِ ويقتصرُ على الكتابِ والسنَّةِ والإجماعِ والعقلِ، في حين أننا نجدُ القياسَ عندَ جميعِ الأَئمّةِ الآخرين. فكما ذكرنَا تحتَ بابِ الوصيّةِ والبيعةِ، إنَّ المسلمينَ الشِّيعةَ الإماميَّةَ يعتقدُونَ بأَنَّ الإمامَ معصومٌ فكانَ الأَمرُ بالنسبةِ إليهم واضحًا وَلاَ لَبْسَ فِيهِ، لِذَا هُمْ يضعُونَ أقوالَ الأَئمَّة في موضِعِ المنصوصِ عَلَيهِ الَّذِي يكون سنَّةً مُتَّبعةً كالقرآنِ الكريمِ والسّنَّةِ النَّبويَّةِ، فكانَ وجودُ الأَئمَّةِ الأعلامِ بَيَنَهُمْ فيهِ غَنَاءٌ عَنْ كلِّ اجتهادٍ، وَقَدْ تركوا تركةً ثمينةً مِنَ الفتاوى والأَحكامِ كانتْ عِنْدَهُمْ بمنزلةِ النُّصوصِ و الآثارِ. وقد تُوُفِّيَ آخرُ إمامٍ مِنْ أَئمتِهِمْ في أَوّلِ النِّصفِ الثَّانِي منَ القرنِ الثَّالثِ

فَما كانت ثَمَّةَ حاجةٌ إلى قياسٍ، وَمَا كانَ الإمامُ مِنْ أَئمّتِهِمْ إِذَا قالَ قولًا في حاجةٍ إلى أن يُثْبِتَهُ بقياسٍ يربطُ فيهِ الأَصلَ بالفرعِ، بَلْ كانَ كلامُهُ حُجَّةً في ذاتِهِ، إذ هُوَ معصومٌ عَن الخطإِ فَلا يُسْأَلُ إِذَا قالَ قولًا: مِنْ أَين قُلْتُ هذا؟ أَو لِمَ قُلْتَ هذَا؟ فَكَان مِن الواقعِ أَلا يكونَ للقياسِ عِنْدَهُمْ شَأْنٌ يُذْكَرُ إلا عَلَى أَنَّهُ أَمْرٌ باطلٌ أَو بِدْعَةٌ في الدّينِ. ولَمْ يَمْنَعْ إبطالَ القياسِ عِنْدَ الإماميَّةِ، أَنْ يَكونَ أكثرُ فقهاءِ السّنّةِ وخصوصًا الأَئمّةُ الأَربعةُ قَدِ عدّوه أَصْلًا مِنَ الأُصولِ الفقهيَّةِ حتَّى عدّه الإمامُ الشَّافعيُّ مصدرًا قوامُهُ النصُّ، إذ إنَّ الفقهَ يقومُ على النَّصِّ أَوِ الحمل على النَّصِّ، والقياسُ هُوَ الحملُ على النَّصِّ. وأبو حنيفةَ شَيْخُ فُقَهاءِ العراقِ قَدِ اشتهرَ بالقياسِ، وأَضافَ إِليهِ الاستحسانَ وَهُوَ يرجع إلى القياسِ أَوِ النَّصِّ أَو الإجماع.

هذَا هُوَ عِلْمُ أُصُولِ الفقهِ عِنْدَ الإماميَّةِ في القرنِ الثَّالثِ الهجريّ وَقَدْ جاءَ القرنُ الرَّابعُ وفيهِ نَمَا عِلْمُ أُصولِ الفقهِ عِنْدَ الإماميَّةِ نموًّا كبيرًا وذلك لسببينِ:

أحدهما: غيبةُ الإمامِ وقَدْ كانُوا يعتمدون عليهِ في أَخذِ الأحكامِ الفقهيّةِ فكانَ لا بُدَّ بَعدَ غيبتِهِ من أَنْ يُعْنَوْا بِضَوابِطِ الاستنباطِ وموازينِ الآراءِ كيْ يسيرُوا في اجتهادِهِمْ على بينَةٍ.

ثانيهما: أَنَّ بابَ الاجتهادِ عندهمْ مفتوحٌ ولا يقفونَ عِنْدَ أقوالِ الأَئِمَّةِ إِنْ لَمْ يُعْرَفُ لَهُمْ نصٌّ في المسأَلة الَّتي تعرضُ مِنْ بعدِهِمْ بَلْ يستنبطونَ الحكم في غير قياسٍ ويرجعون إلى القواعد العامة في أصول الفقه ليصلوا إلى الأحكام، ومِنْ غيرِ أَنْ يخرجُوا على أَقوالِ الأَئمَّةَ الثَّابِتَةِ.

ولَقَدْ أنمى هذه الدراسةَ وجودُ علماءَ مِنَ المسلمينَ الشِّيعةِ الإماميَّةِ مِنَ القرنِ الثَّالِثِ عكفُوا عكوفًا تامًّا على الفقهِ وأُصولِهِ، فَدَوَّنُوهُ ورتَّبُوا أَبوابَهُ وفَجَّروا ينابيعَهُ وأَجْرَوْا جداولَهُ. وكانَ منهم في كلِّ قرنٍ مِنَ القرونِ التَّالية علماءُ أَجلاءَ كتبُوا في فروعِ الفقهِ وأُصولِهِ.

ولِذَا رأَيْنَا هذَا الاختلافَ أَدَّى إلى اختلافٍ في الأَدلَّةِ الشرعيّةِ وبالتَّالي أَدَّى إلى اختلافِ طريقةِ الاجتهاد، وهكذا نشأ بَعْدَ طبقةِ التَّابعينَ الاختلافُ في طريقةِ استنباطِ الأَحكامِ، وصارَتْ لكلَ مجتهد طريقةٌ خاصّةٌ.

وقد نشأَ عنْ هذا الاختلافِ في طريقةِ الاستنباط وجودُ مذاهبَ فِقهيّةٍ متعدّدةٍ أَدّتْ إلى نموّ الثروةِ الفقهيَّةِ، وجعلتِ الفِقْهَ يزدهرُ ازدهارًا كبيرًا، وذلكَ لأَنَّ الخلافَ في الفَهْمِ طبيعيٌّ وهو يساعدُ على نمو الفكرِ. وقد كانَ بعضُ الصحابةِ يخالفُ بعضهم الآخرَ، فقد خالفَ عبدُ اللَّهِ بن عباس عليًّا سلامُ الله

عليهِ، وزيدًا بن ثابتٍ وعمرَ رضِي اللَّهُ عنهما، معَ أَنَّهُ أَخذَ عنْهُمْ. وخالفَ كثيرٌ منَ التَّابعينَ بعضَ الصحابةِ وفي الوقتِ الذي أخذوا العلمَ عنهُمْ، وخالفَ مالكٌ كثيرًا من أَشياخِه، وخالفَ أَبو حنيفةَ جعفرًا الصادقَ في بعض المسائلِ مَعَ أَنَّهُ تلميذُهُ، وخالفُ الشافعيّ مالكًا في كثيرٍ من المسائِلَ، وهو تلميذُهُ أيضًا. وهكذا كانَ العلماءُ يخالِفُ بعضُهم بعضًا، والتلاميذُ يخالفونَ أشياخَهُمْ وأَساتِذَتَهُمْ، وما كانُوا يَعُدّونَ ذلكَ سوءَ أَدب أو خروجًا على أشياخِهمْ، وذلكَ لأَن الإِسلامَ حثَّ على الاجتهادِ، فكانَ لكلِّ عالمٍ أَنْ يَفْهَمَ ويجتهِدَ وَأَلّا يَتَقَيَّدَ بصحابيّ أَو شيخٍ أَو أُستاذٍ. وقد كانَ لهؤلاء التلاميذِ الفضلُ الأَولُ في نشرِ مذاهبِ أَساتِذتِهِمْ وأَئِمَّتِهِمْ في شرحِ الفقهِ وازدهارِه، ويُعدّون عصرهمْ أَزهرَ من عصرِ الأَئمةِ أَنفسِهم، لأَنَّ هذا العصرَ هو الذي فُصِّلَتْ به الأَحكامُ والأَدلَّةُ. ولأَجل ذلكَ اندفعَ الفقهاءُ في دراسةِ الفِقْهِ وشرْحِهِ ولا سيّما عِلْمِ أُصول الفِقْهِ الذي يُعَدُّ الأَساسَ الحقيقيّ للفقهِ. وظلّ أَمرُ الفِقْهِ يَشعّ حتى ازدهرَ أَيما ازدهار، وكانَ أَوجُ ازدهارِهِ في القرنِ الرَّابعِ الهجريّ بَعْدَ القرنِ الَّذي تكوّنتْ فيهِ المذاهبُ.

هُبوطُ الفِقهِ الإِسلاميّ

بعدَ تلاميذِ المجتهدينَ جاءَ أَتباعُ المذاهبِ ومُقَلِّدُوها، فلمْ يستمرّوا على الطريقةِ الَّتي سارَ عليها الأَئمّةُ وأَصحابُ المذاهبِ في الاجتهادِ واستنباطِ الأَحكامِ، ولا على الطريقةِ التي سارَ عليها تلاميذُ المجتهدينَ مِنْ تتبّعِ الدلَيلِ وبيانِ وجهِ الاستدلالِ والتفريعِ على الأَحكامِ، وشرحِ المسائلِ، وإِنّما عُنِيَ أَتْبَاعُ كلِّ إمامٍ، وعلماءُ كلِّ مذهبٍ بالانتصارِ لمذهبهمْ وتأْييدِ فروعهِ وأُصولِهِ بكلّ الوسائلِ.

فلمْ يُعْنَوا بتتبُّعِ صحّةِ الدليلِ وترجيحِ الراجح على المرجُوحِ ولو خالفَ مذهَبهُمْ، وإِنما كانوا يُعْنَوْنَ بإِقامةِ البراهينِ على صحةِ ما ذهبُوا إِليه وبطلانِ ما خالفهُ، ومن ثَمّ كانتْ عنايتُهُمْ منصرفَةً إِلى تأْييدِ مذهبِهِمْ بالإِشادةِ بالأَئمّةِ وأَصحابِ المذاهبِ. فشغلَ ذلكَ علماءَ المذاهبِ وصرَفَهُمْ عنِ الأَساسِ الأَوّلِ وهو القرآنُ والحديثُ، وصارَ الواحدُ منهم لا يرجعُ إِلى نصٍّ قرآنيّ أَو حديثٍ إِلا ليلتمسَ فيهِ ما يُؤيّدُ مذهبَ إِمامِهِ. وبهذهِ العنايةِ الخاصّةِ انحصرتْ أَبحاثُهُمْ في مذاهِبِهِمْ وفترتْ هِمَمُهُمْ عن الاجتهادِ المطلقِ والرّجوعِ إِلى المصادر الأَساسيّةِ لاستنباطِ الأَحكامِ منها. كما انحصرَ هَمُّهُمْ في الاجتهادِ المذهبيّ أَو في المسأَلةِ الواحدةِ منهُ أَو تقليدِهِ من دونَ تبّصرٍ. وبلَغ من تقليدِهِمْ أَنْ قالوا: كلُّ آيةٍ أَو حديثٍ يخالفُ ما عليهِ أَصحابُنَا أَيْ مَذْهَبَهُمْ فهو مؤّولٌ أَو منسوخٌ، وجعلُوا تقليدَ المذهب الذي يعتنقونَهُ فرضًا على المسلمِ، بل ذهبَ مُعْظَمُهُمْ إِلى إِقفالِ بابِ الاجتهادِ على المسلمينَ وقالوا بعدمِ جوازِ الاجتهادِ، حتى صار كثير منَ العلماءِ، ممّنْ همْ أَهلٌ للاجتهادِ وتوافرت فيهم أَهلِيَّتُهُ، يخشى الاجتهادَ، وقد بدأَ هذا الانحطاطُ في أَواخرِ القرنِ الرابعِ الهجريّ إِلا إِنَّهُ لمْ يكنْ متطرّفًا، بلْ لمْ يكنْ يخلُو من مرونةٍ، حتى نهايةِ القرنِ السّادسِ الهجريّ.

وفي أَوائلِ القرنِ السّابعِ الهجريّ حتَّى أَوائلِ القرنِ الثَّالِثَ عَشَرَ الهجريّ كانَ الانحطاطُ تامًّا، في التفكيرِ، لكنَّ الآراء الفقهيّةَ كانتْ آراءً إِسلاميّةً.

وبعدَ أَواخِرِ القرنِ الثّالثَ عَشَرَ، أَيْ منذُ عام 1274هـ. حتى الآن وصلَ الانحطاط إلى حدّ أَنْ خُلِطَتِ الأَحكامُ الشرعيّةُ بالقوانينِ غيرِ الإسلاميّةِ، ووصلت الحالُ إلى أَبْعَدِ حدٍّ من حدودِ الانحطاط.

وكانَ من جرّاءِ ذلكَ الانحطاطِ الفِقْهِيّ أَنْ جر الناسِ إلى إهمالِ الأَحكامِ الشرعيّةِ، فبعدَ أَنْ كانتِ الشريعةُ الإسلاميّةُ تَسَعُ العالَمَ بأَسرِهِ، جعلُوها تضيقُ حتَّى بأَهلِهَا فاضطرُّوا إلى أَنْ يتناولوا غيرَها منَ القوانينِ الأُخرى الَّتي لا ترقَى إليها.

وأَصبحَ كثيرٌ منْ أَتقياءِ المسلمينَ يتخاصمُونَ إلى شريعةٍ غيرِ شريعةِ الإسلامِ.

وكانَ، في أَواخرِ الدَّولةِ العثمانيةِ، الجهلُ بالإسلامِ وجهلُ الفقهاءِ هما السببان في تأَخُّرِ المسلمينَ وتفرقتِهِمْ. كانَ هنالكَ فقهاءُ جامِدونَ مُستعدّونَ للفتوى بتحريمِ كلِّ جديدٍ وتفكيرٍ كلِّ مفكّرٍ.

ومن أَظرفِ ما وقعَ في ذلكَ مِنَ المضحكات المبكياتِ أَنْ ظَهَرَت قهوةُ البنّ، فأَفتَى بعضُ الفقهاءِ بتحريمها، ولبسَ الناسُ الطربوشَ فَأَفْتَوْا بتحريمه، وظهرتِ المطابعُ فحرّمَ بعضُ الفقهاءِ طبْعَ القرآنِ الكريمِ بها، وظهرَ الهاتف «التلفون» فحرّموا التكلُّمَ به، حتى آلَ الأَمرُ إلى تجاهلِ الفقهِ الإسلاميّ تجاهلًا تامًّا عندَ المسلمينَ، وقد تحوّلَ الأمرُ من دراسةِ الأَحكامِ الشرعيّةِ إلى دراسةِ القوانين الغربيّةِ.

وفي هذه الحقبة أي من أَواخِرِ الدَّولةِ العثمانيَّةِ عمَدوا إلى الفقهِ الإسلاميّ يُقلدّون بهِ الفقهَ الغربي في التقنين، فوضعُوا المجلَّةَ عام 1286هـ قانونًا مدنيًّا، وصدرتِ الإرادةُ السّنيّةُ بالعَمَلِ بها عام 1293هـ وكانوا قبلَ ذلكَ قد وضعُوا قانونَ الجزاءِ عام 1274هـ. وجعلوهُ محلَّ الحدودِ والجناياتِ والتعزيز. ووضعوا قانونَ التجارةِ عام 1276هـ.

وهكذا انحطَّ الفِقْهُ وتحوّلَ إلى قوانينَ وأُبعِدَتِ الأَحكامُ الشرعِيّةُ وأُخِذتِ الأَحكامُ من غيرِ الإسلامِ بحجّةِ موافقتها للإسلام. وسادَتْ فكرةٌ خاطئةٌ تتلخَّصُ في أَنَّ كلَّ ما يوافقُ الإسلامَ يُؤخَذُ منْ أَيّ إنسانٍ، وانحطَّتْ هِمَمُ العلماءِ وصاروا في جملتِهِمْ مُقَلِّدين.

لكنَّ ذلكَ، على الرَّغمِ منْ كلِّ مساوئهِ، كانَ فيه ظِلٌّ للإسلامِ، أَو كانَ يلوحُ فيهِ ظلهُ على الأَقلِّ. ولكنْ بعد غزو الغرب واستيلاءِ الإنكليزِ والفرنسيّينَ ــ خصوصًا ــ على البلاد الإسلامية وجعلها دولًا تقوم على الأَساس الإقليمي أو القومي، عربيًّا كانَ أَو تركيًّا أَو إيرانيًّا أَو غيرَهُ، ذاتَ الفقْهُ الإسلاميُّ منَ

الوجودِ وحِيلَ بَيْنَهُ وبينَ الناسِ في العلاقاتِ، وسُدَّتْ أَبوابُ التَّعَلُّمِ والتعليمِ، ولمْ يَبْقَ لهُ وجود في المدرسةِ إلا في بعضِ البلدانِ كالأَزهرِ في مصرَ، والنجفِ في العراقِ وقُم في إيران وجامعِ الزيتونةِ في تونس.

وخلاصة هذا البحث أن الفقه الإسلامي الأصيل هو تراث حضاري يؤدي إلى فهم أحكام العقيدة، فلا يجوز الخوف من اختلاف الآراء فيه، ولكن عندما هبط التفكير عند المسلمين، راحوا يخفون هذا الهبوط وراء ما يدّعونه فقهًا حتى أدّت بهم الحالُ إلى تضييع الأمة الإسلامية وتشتيتها إلى قوميات متنابذة. يستحكم بينها العداء، بل حتى في القومية الواحدة ــ وهي النظرية المصطنعة للتفرقة ــ بثّ روح الخلاف والتفرقة، حتى صارت الحال إلى ما نحن عليه، فهل من عودة أيها المسلمون، في جميع أقطار الأرض، إلى الحقيقة والحقّ وهما في قرآنكم الواحد، وفي سنّة نبيكم الواحد (صلى الله عليه وآله وسلم)؟!

قالَ الإِمَامُ عليٌّ سَلاَم اللهِ عليه

عَن المتخَاصِمين في الفتْيا

إِنّما إلهُهُمْ وَاحِدُ ونَبِيُّهُمْ وَاحِدٌ! وكِتابُهُمْ وَاحِدٌ! أَفَأَمَرَهُمُ

اللهُ ــ سُبْحَانَهُ ــ بالاختلافِ فَأَطَاعوه! أَمْ نَهَاهُمْ عَنْهُ

فعَصَوْهُ أَم أنزل اللهُ سُبُحانَهُ دِينًا نَاقِصًا فاسْتَعَانَ

بِهِمْ عَلَى إِتْمامِهِ! أَمْ كَانُوا شُرَكَاءَ لَهُ

فَلَهُمْ، أَنْ يقَوُلُوا، وَعَلَيْهِ أَنْ يَرْضَى

أَمْ أُنزَلَ اللهُ سُبْحَانَهُ دِينًا تامًّا فَقَصَّرَ الرَّسُول (صلى الله عليه وآله وسلم)

عن تبليغه وَأَدائِهِ واللهُ سُبْحَانَهُ يقَولُ:

{مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ} [الأنعام: 38] {تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَي} [النحل: 89]

{وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا} [النساء: 82]

وَإِنَّ القُرْآنَ ظَاهِرُهُ أَنِيقٌ وَبَاطِنُهُ عَمِيقٌ، لاَ تَفْنَى عَجَائِبُه، ولا تَنقَضِي غَرائِبُه، وَلاَ تُكْشَفُ الظُّلُماتُ إِلا بِهِ

«نهجُ البَلاغة»

الطائِفيَّة وَالفَرق بَينَ التخَاصُمِ
في الدّينِ وَالاختِلافِ في الرَأي

الطَّائفيّةُ يجبُ أَنْ تُمْحَى لأَنها تُؤَدّي إلى الخُصومةِ الدّينيّةِ. والعملُ عَلى مَحْوِهَا يجبُ أَنْ يكونَ غايةً مقصودةً لأَنَّ الخلافَ الطَّائفيَّ يُشبِهُ أَنْ يكونَ نزعةً عُنْصرِيَّةً، والَّذينَ يُريدونَ كيدًا للإسلام يتغذَّوْنَ منهُ وَيَرَوْنَهُ منفذًا من خلالِهِ إلى وَحْدَةِ المسلمين.

يجبُ أَن يكونَ واضحًا أَنَّ وحدةَ المسلمينَ لا تتِمُّ إلا بوحدةِ الشعورِ ووحدةِ التَّفكيرِ، وَلا وحدةَ للشُّعورِ والتَّفكيرِ مَعَ الخلاف الطَّائفيّ. ولهذا نقولُ وَنُكَرِّرُ القولَ: إنَّ الطَّوائفَ الإسلاميّةَ ــ إن كان من داع لبقاء المسلمين طوائف ولا نظن أن داعيًا من هذا القبيل مهما كان نوعه يرضي اللهَ ورسوله ــ كلَّها يجبُ أَنْ تتلاقَى على محبَّةِ اللهِ والاعتصامِ بِحَبْلِهِ والعمل المخلصِ لنيلِ رضاهُ. ولا مانعَ مِنْ أَنْ تختلفَ آراؤُنَا، ولكنْ يكونُ اختلافُ آحادٍ لا اختلافَ جماعاتٍ يجعلُ الأُمّةَ الإسلاميّةَ متفرقةً متنازعةً. ونحنُ لا نقصدُ بمحوِ الطائفيةِ محوَ المذهبيّةِ أَو إدماجَ المذاهبِ الإسلاميةِ بعضِهَا معَ بعضٍ، فإنَّ ذلكَ لا يصلُحُ أَنْ يكونَ عملًا علميًّا ذَا فائدةٍ يَحْمَدُهُ العلماءُ والمفكِّرونَ. إذ إنَّ كلَّ مذهبٍ هُوَ مجموعةُ مفاهيمَ وأحكامٍ أُقيمتْ على مناهجَ تتَّجهُ في مجموعِهَا إلى النُّصوصِ الإسلاميَّةِ والبناءِ عَلَيْهَا وكلُّ إدماجٍ فيه إفناءٌ لَيْسَ مِنَ المصلحةِ العلميَّةِ في شيءٍ، بَلْ يجبُ أَن تبقَى تلكَ التَّمراتُ الفكريَّةُ يُرْجَعُ إِلَيْهَا وَيُخْتَارُ عِنْدَ العملِ أَصْلَحُهَا للبقاءِ وأقواهَا اتِّصالًا بالكتاب والسُّنَّةِ وأكثرُها تفسيرًا للوقائعِ والحدثان.

ويجبُ أَنْ يعلمَ كلُّ مسلمٍ أَنَّ المذاهبَ الإسلاميَّةَ تراثٌ علمي هُو للجميعِ لا لطائفةٍ مِنَ الطَّوائفِ وَلا لجماعةٍ مِنَ الجماعاتِ، ومِنَ الواجبِ الحِفاظُ عليهِ والعِنايَةُ به ليبقى تُراثًا خالدًا يصوّرُ الجهودَ العلميّةَ لأَئمّةِ المسلمينَ وعلمائِهِمْ. وربَّ سائلٍ يسأَلُ: ولكن كيفَ يمكنُ مَحْوُ الطائفيّةِ مَعَ بقاءِ تعدُّدِ المذاهبِ؟

فالجوابُ عن ذلكَ أَنَّ الطائفيّةَ هيَ غيرُ المذهب. فالطائفيّة تجمعُ جماعةً حولَ مذهبٍ تعتنقُهُ وتدعُو إليهِ وتُعدّ كلَّ جماعةٍ لا تعتنقُهُ ليستْ مِنْهَا. أَمَّا المذهبُ فَهُوَ مجموعةٌ علميّةٌ تبقى حافظةً كيانَها لأَنَّهَا تراثٌ فكريٌّ، وَهُوَ بطبيعةِ الحالِ أَمرٌ معنويٌّ منفصلٌ عَنِ الجماعةِ الَّتي تعتنقُهُ. فإِذَا دَعَوْنَا إِلى مَحْوِ الطائفيّة فمعنَى ذلك أن تكون الجماعةُ الَّتي تتميّزُ بعنوانٍ طائفي وتُعدّ نَفْسَهَا وجودًا مستقلًّا عن بقيّةِ المسلمينَ بما انتحلتْ وبما اتجهتْ يجبُ أن تَزول. وَأَمَّا المذهبُ فهو باقٍ يعتنقُهُ مَنْ يشاءُ أو يختارُ بَعْضَهُ مَنْ يريدُ، وهذا يُنَمِّي المذهبَ ويزيدُهُ انتشارًا، وهذا يجبُ أَلّا يَزولَ. والمذهبُ الَّذي تنحازُ إليه طائفة معيّنة قد تحجبُهُ عن غيرِها، وتجعلُ هذا الغيرَ لا يدركَ ما في المذهبِ من آراء صالحة هي أقربُ ملاءمة للنُّصوصِ مِنْ غيرِ مخالفةٍ لغيرِهِ مِنَ المذاهبِ.

وإِنَّنَا إِذْ ندعوُ إلى مَحْوِ الطائفيّةِ ونبذِها نبغي مِنْ وراءِ ذلكَ رضوانَ اللهِ تعالى، ونتوخّى وحدةَ المسلمينَ وخصوصًا في هذا الظَّرفِ العصيبِ الَّذي نعيشهُ ونتأَلَّمُ من واقعِهِ المريرِ كما كانَ يتأَلَّمُ الإمامُ الباقرُ عليهِ السلامُ عندما قال: «إيّاكُمْ والخصومَة في الدينِ فإِنَّهَا تُحْدِثُ الشكَّ وتورثُ النِّفاقَ». وقد قالَ هذا القولَ سلامُ الله عليهِ لأَنّهُ يعلَمُ أَنَّ الخصومةَ في الدين تحْدِثُ الرّيبَ، وتوجدُ الاضطرابَ النفسيَّ والفكريَّ، والمضطربُ فكريًّا ونفسيًّا لا يؤمن إيمانًا خالصًا. ويخشى على المضطربِ نفسيًّا أَنْ يصلَ إلى درجةِ النفاقِ. والمنافقُ ذُو فكرٍ غيرِ مستقرّ وقلبٍ غيرِ مطمئنّ يستوي في نفسهِ الحقّ والباطلُ، لذَا قالَ الله في سُورة النِّساء: {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُواْ إِلَى الصَّلاَةِ قَامُواْ كُسَالَى يُرَآؤُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللّهَ إِلاَّ قَلِيلًا (142) مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لاَ إِلَى هَـؤُلاء وَلاَ إِلَى هَـؤُلاء وَمَن يُضْلِلِ اللّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا} [النساء: 142 ـ 143].

وقالَ رسولُ الله (صلى الله عليه وآله وسلم): «مَثَلُ المنافِقِ كَمَثَلِ الشَّاةِ العائِرَةِ[2] بين غَنَمَيْنِ لا تدري إلى أَيهما تذهبُ» .

ولا نعني بالخصومةِ بالدِّينِ الاختلافُ في طريقةِ استنباطِ الأَحكامِ الشرعيّةِ إِذِ الاختلافِ ينبعثُ مِنَ الفكرِ القويّ المستقلّ، والخصومةُ تنبعثُ من التعصُّبِ الطائفيّ الَّذي قرّرنا وجوبَ محوهِ، فالاختلافُ يكونُ فيهِ تَعرُّفُ وجهاتِ النَّظَرِ المختلفةِ، وكلّما كانتِ المعرفةُ واسعةً باختلافِ العلماءِ كانتِ الدِّراسَةُ

[2] العائرة: المترددة.

أكملَ، ولهذا كانَ أَبو حنيفةَ رضي اللهُ عنهُ يقولُ: «أَعلمُ النَّاسِ هُوَ أَعلمُهُمْ باختلافِ العلماءِ» ولقد عدّ الإمامُ جعفرٌ الصادقُ سلامُ اللهِ عليهِ أَعلمَ أَهلِ عصرِهِ لأَنَّهُ كانَ أعلمَ النَّاس بوجوه الاختلافِ: وقَدْ قَالَ الإمامُ أَبو حنيفةَ: سأَلْتُهُ عَنْ أَربعينَ مسأَلةً فكانَ يقولُ: الحجازيُّونَ يقولون كذا وأَنتمْ معْشر العراقيّينَ تقولُون كذَا ونحنُ نَرى كَذَا. فَأُعْجِبَ بِهِ أَبُو حنيفة أَيّما إعجابِ. هذَا هُوَ الاختلافُ. أَمّا الخصومةُ فهيَ النَّظرةُ الجانبيّةُ الَّتي لا تُصَوَّبُ فيها الأَنظارُ إِلى كبدِ الحقائقِ ولكنْ تنحرفُ إِلى جَانبٍ مِنْ جوانبِهَا. والخصومةُ تُؤدّي إلى الافتراقِ وإِلى ضيقِ الفكرِ، فإِذا نظرت إلى الحقائقِ لا تنظُر إِليها إِلا بنظرةٍ متحيّزةٍ، واليومَ علينا أَن ندفنَ تلكَ الخصوماتِ المميتةَ وأَنْ ننسى تلكَ الأَيَّامَ الَّتي كانَ يجري فيها التَّخاصُمُ في الدِّينِ. لأَنَّ الأَعداءَ كانُوا يريدونَ منَّا أَن نشغلَ أنفسنَا بهذِهِ الخصوماتِ ليوسّعوا الثَّغرةَ الَّتي ينفُذُونَ منهَا لتمزيقنَا وتفتيتنا.

وها نحنُ اليومَ وَقَدْ عَلِمْنَا ذلكَ القصدَ منهمْ يجبُ علينَا أَنْ نكونَ أمامهُمْ كالبُنيانِ المرصوصِ يَشُدُّ بعضُنَا بعضًا، إِذَا اتجهُوا إلينا صُدِمُوا بجدرانِهِ الَّتي باطنُهَا فيهِ الرّحمةُ وظاهِرُهَا من قِبَلِهِ العَذَابُ. وَلَقَدْ ذُكِرَ أَنَّ الغابَةَ إِذا وقعَ فيها حريقٌ تنسَى الوحوشُ المفترسةُ فرائسها فتمرُّ أمامَهَا فلا تعيرُهَا التفاتًا، لأَنَّ الكوارثَ تُزيلُ الأَحقادَ وتبعثُ على التَّعاونِ والتَّعاضدِ. ونحن المسلمينَ اليومَ قَدْ صرنَا غرضًا يُنَالُ، وَلا مطمعَ لأَعدائِنَا إِلا بتفرقتنا، وبإِيجادِ الخصوماتِ الدينيّةِ دائمًا وأبدًا بينَنَا.

وإِليكمُ المثال على ذلكَ:

في كّلِ عامٍ تشاهدونَ الخصومةَ حولَ بدايةِ شهرِ رمضانَ، وأحيانًا حول بدايةِ أَيّام العيدِ، أَهوَ الثلاثاء أَمِ الأربعاءُ، الخميسُ أَمِ الجمعةُ؟ وتبدأُ المشادَّة والجدلُ حولَ هذهِ المسأَلةِ. وإِذَا اتَّفَقَ المسلمونَ عَلَى أَوّلِ الشَّهْرِ، وبذلكَ تكونُ قَد أُخمِدَتْ فِتْنَةُ الشَّهْرِ الكريمِ، فسرعانَ ما يُؤجّجونَ نارَ فتنةِ عيدِ رمضانَ، أَهوَ السَّبتُ أَمِ الأَحدُ؟ ويحتارُ المسلمُ أَيُفطرُ أَمْ يصومُ؟ وإِذَا كانَ هذَا النَّهارُ مِنْ شهرِ رمضانَ كيفَ يجوزُ لَهُ أَن يُفطرَ عامدًا متعمّدًا؟ وإِذا صامَ وكانَ هذا النهارُ نهارَ عيدٍ فكيفَ يحقُّ لَهُ الصّيامُ؟ كأَنَّ القمرَ في هذا البلدِ لَهُ بدايتانِ، أَو أَصبح القمرُ قَمَرَينِ، أَو أَنَّ القمرَ يظهرُ على فئةٍ ويتخفَّى عن الفئةِ الثَّانيةِ. وبهذَا بدأْنَا نظهرُ للغيرِ مُتخاصمينَ غَيْرَ مُؤتلفينَ، وَإِذَا تسامَرُوا بمجالِسِهِمْ وَأَتَوْا على ذكرِنَا رَثَوْا لحالِنَا، ومنهمْ مَنْ يسخر مِنَّا وَمِنْ تصرّفاتِنَا.

وهكذا ينغّصُ علينا حياتَنا، حتَّى يوم العيدِ، محبو التَّفرقةِ والمتخاصمونَ في الدّين...

فعلينا إذا أَرَدْنَا العزَّةَ بَعْدَ أَنْ وقَعْنَا في المذلَّةِ أَنْ نُزيلَ مَا في نفوسِنَا، ونتقدَّمَ بقلوبٍ صافيةٍ وبنيّاتٍ حسنةٍ لخدمةِ شرعِ اللهِ، مجتمعينَ غيرَ متفرّقينَ، ومتحابّينَ غيرَ مُتخاصمينَ، وبهذا نكونُ قد خدمْنَا أَنفُسَنَا ومجتمعَنَا.

ونسأَلُ اللهَ القديرَ أَنْ يُرِيَنَا اليومَ الَّذي تكونُ فيه الخصومات الدّينيّةُ قد وَلَّتْ وأَفلَ نجمُها، وذهبت إلى غيرِ رجعةٍ، وهذا لا يكونُ لنا أَبدًا إلا إذا نحنُ تَسَامَيْنَا وترفَّعْنَا عنِ الخصوماتِ وأَقبلْنَا على هذهِ التَّركةِ الإسلامِيَّةِ ندرس ونوازن ونختارُ مِن تلكَ الحديقةِ الغنَّاءِ أَجْمَلَ ما فيها من زهورٍ وانضجَ ما فيها من ثمارٍ وأَصْلَحَهَا لغذاءِ عقولِنَا ونفوسِنَا، وأقواهَا في إرساءِ مجتمعِنَا على أسسٍ دينيّة تُشْتَقُّ مِنَ الماضي وتلائمُ الحاضرَ وتبني للمُستقبلِ. ولكنْ مع الأَسفِ، إنَّ الدّراسةَ لهذِهِ التَّركةِ النَّفسيةِ ما زَالَ يحولُ بينَنَا وبينَها حائلٌ نفسي سَبَبُهُ أَنَّ الآراءَ تحملُها فرقٌ كانَتْ وما زالَتْ تتناخرُ في الماضي والحاضر، ويرمي بعضُها بعضًا بالكفر ويتبادلونَ السّبابَ، فَمِنْ هذهِ الفِرَقِ مَنْ يرى أَنَّ الشِّيعةَ الإمامِيّةَ «أَرفاضٌ» لكونِهِمْ رفضُوا خلافةَ أَبي بكرٍ وعمرَ وعثمانَ، ولا يجوزُ الزواجُ منهمْ ولا السّيرُ مَعَهُمْ، ومنهم مَنْ يَرَى أَنَّ سبَّ الشَّيخَيْنِ أَبي بكرٍ وعمر وكذلكَ عثمانَ بن عفَّانَ أَمرٌ يُتَعَبَّدُ بهِ. وَلا شكَ في أَنَّ الدَّارسَ المحقِّقَ المخلصَ لربِّهِ وإسلامِهِ يعرفُ، عند الدراسة، مقامَ أَهلِ بيتِ رسولِ اللهِ وشيعتِهِمْ ويعرِفُ مقامَ أُولئكَ الصّحابةِ الكرامِ، ويجدُ في نفسِهِ حرجًا في سبّهم، ولقد قالَ الإمامُ محمدٌ الباقرُ سلامُ اللهِ عليهِ لجابرٍ الجعفيّ أَحدِ أَصحابِهِ: يا جابر: بَلَغَنِي أَنَّ قومًا مِنَ العراقِ يزعمُون أَنَّهُمْ يحبُّونَنَا ويتناولُونَ أَبا بكرٍ وعمرَ رضي اللهُ عنهما ويزعمونَ أَنِّي أَمرتُهم بذلكَ، فَأَبْلِغْهُمْ أَنِّي إلى الله بريءٌ منهم والَّذي نفسُ محمدٍ بيدِه لَوْ وُلِّيتُ لَتَقَرَّبْتُ إلى اللهِ بدمائِهِمْ.

ومثل هذا الإرث المقيت إن بتهمة الرفض أو بالتعدّي بالسبّ، يجب أن يزول وينقضي، لأَنَّهُ ما وُجدَ إلا لأغراض شخصية يُنكرها الله في عليائه ورسولُهُ في خلدِهِ والمسلم الصادق في إيمانه... فعلامَ نُغْضِبُ الله تعالى ونغضبُ رسولَهُ الكريم بأمورٍ لا تمتُّ إلى واقعنا الحالي، ولا إلى حياتنا الحاضرة بصلةٍ اللهم إلا صلة البقاء على التنابذ والتفرقة؟!... كلنا مسلمون ــ إن شاء اللهُ ــ وبقدر ما نبتغي الإسلامَ دينًا بقدر ما نحافظ على وصية رسولِ اللهِ (صلى الله عليه وآله وسلم) بقوله: «المسلم أخ المسلم أحب أم كره»...

بَعض الفِرَقِ التي انتحلتِ

التشيّع الكيسَانيَّة

بَعْدَ مقتلِ الإمامِ الحسينِ سلامُ اللهِ عليه قامتْ فِرقٌ متعدّدةُ الاتجاهات ومتباينةُ الآراء ومختلفةُ العقائدِ. منْهَا الكَيْسَانِيّة الَّتي تكوّنتْ من آراءِ المختار بْنِ أَبي عُبَيْدٍ الثَّقفي الَّتي كانَ يبثُّها، وقيلَ إنَّ المختارَ الثَّقفيَّ أَخذَ مذهبَهُ عن مولى اسمُهُ كَيسَان. وهذهِ الآراءُ تقومُ على أَساسِ أَنَّ الإمام شخصٌ مقدّسٌ، تُبْذَلُ لَهُ الطَّاعَةُ ويثقونَ بهِ ثقةً مطلقةً، ويعتقدُونَ أَنَّهُ معصومٌ عن الخطإِ لأَنَّهُ رمزُ العلمِ الإلهي ويعتقدُونَ برجعة الإمامِ، وهوَ في نظرِهِمْ بعد عليٍّ والحسن والحسينِ مشيرينَ إلى محمد بْنِ الحنفيّةِ بْنِ الإمامِ علي (ع). ويقولُ عنهُ بعضُ اتباعِ المختارِ أَنَّهُ ماتَ وسيرجعُ، لكنَّ الأَكثرينَ منهُمْ يعتقدُونَ أَنَّهُ لَمْ يمتْ بَلْ هُوَ حي. ويعتقدُ الكيسانيَّةُ أَيضًا بتناسُخِ الأَرواحِ، وهُوَ خروجُ الرّوحِ من جَسَدٍ وحلولها في جسدٍ آخرَ، وهذَا الرّأْيُ يشابهُ ما في الدّيانةِ الهندوسيَّةِ، ويقولُونَ إِنَّ الرّوحَ تُعَذَّبُ بانتقالها مِنْ حَيٍ إلى حَيٍّ أَدنَى منهُ، وَتُثَابُ بانتقالها مِنْ حيٍّ إلى حيٍّ أَعلى منهُ، وَإِنَّ الأَئمَّةَ تنتقلُ أرواحُهُمْ الَّتي تحملُ العصمةَ مِنْ إمامٍ إلى الإمامِ الذي يليهِ، بذلكَ تنتقلُ معها المعرفةُ الَّتي كانَ يتحلى بها الإمامُ السّابقُ إلى الإمامِ اللاحقِ.

وقالُوا إِنَّ لكلِّ شيءٍ ظاهرًا وباطنًا، وإِنَّ لكلِّ شخصٍ روحًا، ولكلِّ تنزيلٍ تأْويلًا، ولكلِّ مثالٍ في هذَا العالَمِ حقيقةً، والمنتشرُ في العالَمِ مِنَ الحِكَمِ والأَسرارِ مُجْتَمِعٌ في الشَّخصِ الإِنسانيّ، وَهُوَ العلمُ الَّذي آثَرَ بِهِ عليٌّ عليه السّلامُ ابنَهُ محمدَ بنَ الحنفيّةِ، وكلُّ مَنِ اجتمعَ فيهِ هذا العلمُ فهوَ الإمامُ حقًّا وصدقًّا.

لكنَّ الإمامَ محمّدَ بْنَ الحنفيّةِ أعلنَ البراءَةَ منَ المختار الثَّقفيّ، والَّذينَ شايعُوهُ حولَ هذهِ الأَفكارِ، عَلى الملإِ مِنَ الأُمَّةِ وعلى مشهدٍ منَ العامّةِ عندِمَا بلغتْهُ أوهامُهُمْ وأكاذيبُهُمْ. إلا إِنَّ هذهِ الأَفكارَ الفاسدةَ مَعَ الأَسفِ وجَدتْ موضعًا خصيبًا في الكوفةِ وما حولها مِنَ الأَراضِي العراقِيَّةِ في زمنِ الإمامِ محمدٍ الباقرِ.

ونشأَ الإمامُ جعفرٌ الصّادقُ فوجدَ أباهُ في أَمرٍ مريرٍ مِنْ هؤلاءِ الَّذينَ يدّعونَ التبعيَّةَ لَهُ وَهُوَ منهمْ بريءٌ. وكانُوا يحاولُونَ الاتصالَ بهِ وبالصّادقِ مِنْ بَعْدِهِ لكنّ كلاهُما كان ينفر منهمُ نفورًا شديدًا.

وَقَدْ أخذتْ تلك الحركات تنمُو ويشتد انحرافُها ويظهرُ ويبينُ في آخرِ القرنِ الأَوّلِ وأَوّلِ القرنِ الثَّاني، أَيْ كانَ نُمُوُّ هذهِ الحركات والإمامُ جعفرٌ الصَّادقُ يدخلُ في دَوْرِ الرّجولةِ ويخلعُ رداءَ الصبا فأَدركَ مراميَهَا وغاياتِهَا وما تؤدّي إليهِ من فسادٍ. فحارَبَهَا كلَّما سمعَ بها.وتبرأَ منها كلَّما نسبُوها إليه كما فعلَ أَبُوهُ من قبلُ.

الخطَّابيّة

وأَمَّا الفِرقُ الخطابيّة فقد ظهرتْ بآرائِها المنحرفةِ في عهدِ الصّادق رضي اللهُ عنهُ. وداعيتُها رجلٌ اسمُهُ أبو الخطَّابِ الأَسديُّ. وقد اشتهرَ بكنيتهِ من دونِ اسمه. كانَ أبو الخطَّابِ في عصر جعفرٍ الصّادقِ مِنْ أجلِّ دُعَاتِهِ، فكفرَ وادّعى النبوّةَ وزعمَ أَنَّ جعفرًا الصادقَ إلهٌ، واستحلَّ المحارمَ ورخَّصَ فيها. وكانَ أصحابُهُ كلَّما ثَقُلَ عليهمْ أَداءُ فريضةٍ أَتَوْهُ وقالوا: يا أَبا الخطَّابِ خفِّفْ عنا فيأْمُرُهُمْ بتركِها حتَّى تركوا جميعَ الفرائضِ، واستحلوا المحارمَ جميعَهَا، وقالَ: مَنْ عرفَ الإمامَ فقدْ حلَّ لَهُ كلُّ شيءٍ كانَ حُرِّمَ عليه. فبلَغ أمرُهُ الإمامَ جعفرًا الصادقَ فلعنهُ وتبرأَ منهُ، وجمعَ أصحابَهُ فعرّفَهُمْ ذلكَ، وكتبَ إلى البلدانِ بالبراءَةِ منهُ واللعنةِ عليهِ.

والخطابيّةُ هُمْ أَوّلُ من تكلَّمَ في الجفرِ، وزعمُوا أَنَّ جعفرًا الصّادقَ أَودعَهُمْ جلدًا يقالُ له «جفر» فيهِ كلُّ ما يحتاجُونَ إليهِ مِنْ علمِ الغيبِ وتفسيرِ القرآنِ.

هذهِ أخبارُ أُناسٍ انتحلوا اسمَ التشيّعِ لآلِ البيتِ في عهدِ الإمامِ الصادقِ عليهِ سلامُ الله. وَلَوْ أَنَّنَا تقصّيناهُمْ فردًا فردًا وتتبعنا أثرَهُمْ في الفرقِ الإسلاميّةِ والآراءِ الَّتي بثُّوها أَوْ حوّروهَا في الفكرِ الإسلامي، وَلَوِ استرسلْنَا في كتابة هذهِ الأَخبارِ عَنِ الفرقِ الَّتي برزتْ في عهد الإمامَيْنِ الكريمين لكانتْ حاجتُنا كبيرةً إلى مجلداتٍ نملؤها، ولكنَّا نقفُ عندَ هذا الحدِّ من القول، تاركين لكل إنسان مسلم أن يتفكر بسفاهة أولئك الأفراد وانتحالهم آراء تخالف الإسلام، جملةً وتفصيلًا، لذلك كانت براءة الأئمة الأبرار منهم ولعنتهم لهم.

الفرق الإسلاميَّة

بَعدَ أَنْ شرحْنَا شيئًا عَنْ فرقتين من الفرق الَّتي انتحلتِ التشيعَ لأَهلِ البيتِ، وأَهلُ البيتِ منهما براءٌ، رَأَيْنَا أَنَّنَا في حاجةٍ إلى التَّعرّفِ على بعضِ آراءِ الفرق الَّتي ذاعَ صيتُها في عهدِ الأئمّةِ عليّ ومحمدٍ الباقرِ وجعفرٍ الصّادقِ عليهم السّلامُ كالخوارجِ والمرجئةِ والجبريَّةِ والمعتزلةِ والقدريَّةِ.

ففي عهدِ الإمامِ علي عليهِ السلامُ أَثار الخوارجُ الكلامَ في مرتكبِ الذَّنبِ فادّعَوْا أَنَّهُمْ ما خرجوا إلا لأَنَّ عليًّا ارتكبَ ذنبًا بموافقته على التَّحكيمِ، وأَنَّهُ لا بدَّ من توبتِهِ.

وقد كثرَ الكلامُ بسببِ ذلكَ في مرتكبِ الذَّنبِ، فالخوارجُ كفَّرُوا عليًّا. وأما المرجئةُ فعدّوا الذَّنبَ مغفورًا. لأَنَّهُ بنظرِهِمْ لا يضرُّ مَع الإيمان معصيةٌ كما لا ينفعُ مَعَ الشِّركِ طاعةٌ.

وأَمَّا الجبريَّةُ فكانَ من أَشد دُعَاتِهَا الجهمُ بْنُ صفوانَ. وإِنَّهُ مَعَ قولِهِ إِنَّ الإِنسانَ مجبرٌ في أفعالِهِ وليسَ لَهُ اختيارٌ فهوَ يزعمُ أَنَّ الجنَّةَ والنَّارَ تفنيانِ وأَنَّ لا شيءَ مخلَّدٌ، والخلودُ المذكورُ في القرآنِ الكريمِ يعني طولَ المكْثِ. ويزعمُ أَنَّ الإِيمانَ هو المعرفةُ، وأَنَّ الكُفْرَ هو الجهل باللهِ وبالحقائقِ الإسلاميّةِ، فمعرفةُ الحقائقِ ومعرفةُ اللهِ من غيرِ إذعانِ وتصديقُها يُعَدُّ إيمانًا، والجهلُ بها هو الَّذي يُعَدُّ كفرًا.

وأَمّا فكرةُ الاعتزالِ فتبلورتْ كمذهبٍ في عهدِ واصلِ بْنِ عطاءٍ الَّذي وُلِدَ سنةَ ثمانينَ هجرية فَهُوَ في سنِّ الإِمامِ الصادقِ (ع). يرى واصلُ بْنُ عَطاءٍ أَنَّ الفاسقَ في منزلةٍ بَيْنَ المنزلَتَيْنِ، وأَنَّ الإنسانَ يقدّرُ أفعالَ نفسِهِ مِنْ خيرٍ أَو شرّ بقوّةٍ أودعها اللهُ سبحانَهَ وتعالى إيّاهُ. فكانَ رأْيُهُ وسطًا بين القدريّةِ الَّذينَ قالُوا إِنَّ الشرَّ مِنَ النَّفسِ والشَّيطانِ، والخيرَ مِنَ اللهِ، وقولِ الجبريَّة الَّذينَ قالُوا إِنَّ أفعالَ العبدِ كلَّها أفعالُ اللهِ تعالى. وقد عاصرَ واصلٌ الإِمامَ جعفرًا لكنَّه كانَ في البصرةِ والإِمامُ في المدينة. ولا بدّ من أَنَّ الإِمام كانَ على علمٍ بأَقوالِهِ وما يدعُو إِليه فرفضه رفضًا باتًّا لأَنَّ ما كان على خلاف الكتاب والسنّة فلا يمكن أن يتصل بالإِسلام بشيء.

وهكذا وُجِدَت الطَّوائفُ الَّتي تستهينُ بالحقائقِ الإسلاميّةِ وسنَّتْ لأَنفسِهَا مذاهبَ متنوعةً لا تتَّفقُ مع حقائقِ الإسلام. وفي جودِهَا وَجَدَ كُلُّ منحرف ما يُرضي أهواءَهُ ويُشبعُ شهواتِهِ بهذا نرى كيفَ تحوّلَ الاسمُ من جماعة محتفظةٍ بِقِيَمِها الدينيّةِ إلى طائفة متحلِّلةٍ من القيودِ الإسلاميّةِ أساسُ مفاهيمها الانحرافُ بقولها إنْ اللهَ يعفُو عَنْ كلِّ الذُّنوبِ ما عدَا الكفرَ، فلا يضرُّ مَعَ الإيمانِ معصيةٌ كما لا يُفيد مَعَ الكفرِ طاعةٌ. وقد قالَ الإمامُ زيدٌ رضِي اللهُ عنهُ «أَبرأُ مَنَ المرجئِةِ الَّذينَ أَطمعُوا الفُسّاق في عفوِ اللهِ».

ويحكي التَّاريخُ أَنَّ عصرَ الإمامِ الصَّادقِ والإمامِ أَبي حنيفةَ والإمامِ مالكٍ رضي اللهُ عنهمْ كانَ عصرَ الجدلِ والنَّظرِ والبحثِ والدرسِ، وابتداءِ تدوينِ العلُوم، وعصرَ ابتداءِ دراسةِ الكونِ والفلسفةِ والاتصالِ الفكريّ بينَ المسلمينَ وغيرِهِمْ من الأُمَم ذواتِ الحضاراتِ القديمةِ، والدّيانات المختلفةِ. فَقَدِ اختلَطَتْ فيه القواعدُ الإسلاميّةُ السّليمةُ بالفلسفَةِ الهنديّةِ وتصوّفها، وبالفلسفة اليونانِيَّةِ والآراءِ الفارسيّةِ. وقد ظهرَ كلُّ هذا في السّياسةِ وفي العلومِ العقليّةِ وفي الأفكارِ الفلسفيّةِ.

عِندَمَا بَايَعَ النَاسُ أَبَا بَكرٍ (رض) البَيْعَةَ العَامّةَ بَعْدَ بَيْعَةِ السَّقِيفَة قامَ أَبُو بَكْر فحَمِدَ اللهَ وأَثْنَى عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ ثُمَّ قالَ: أَمَّا بَعْدُ، أَيُّها النَّاسُ إِنِّي قَد وُلّيتُ عَلَيْكُمْ وَلَسْتُ بِخَيْرِكُمْ فَإِنْ أَحْسَنْتُ فَأَعِينُوني وَإِنْ أَسَأْتُ فَقَوّموني. الصِّدْقُ أَمَانَة، وَالكَذِبُ خِيَانَة، وَالضّعيفُ مِنكم قَوِيٌّ عِنْدِي حَتَّى أُزِيلَ عِلَّتَهُ إِنْ شَاءَ اللهُ، وَالقَوِيُّ فِيكُمْ ضَعِيفٌ حَتَّى آخُذَ مِنْهُ الحَقَّ إِنْ شَاءَ اللهُ. لا يَدَعُ قومٌ الجهادَ في سَبِيلِ اللهِ إلا ضَرَبَهُمُ اللهُ بالذِّلِّ، وَلا يشيعُ قومٌ قَطُّ الفاحِشَةَ إلا عَمَّهُمُ اللهُ بالبَلاءِ، أَطيعُوني مَا اطَعْتُ اللهَ وَرَسُولَهُ فَإِذا عَصَيْتُ الله وَرَسُولَهُ فلا طاعَةَ لي عَلَيْكُمْ – قوموا إِلى صَلاَتِكُمْ يَرْحَمَكُم الله.

هذِهِ ـ الخطبَةُ السِّياسِيَّة التي قدّمَهَا أَبُو بَكْرٍ الصَّدّيق كورقةِ عَمَلٍ لِلمُسْلِمِينَ وَفِيهَا يَحُثّ على مُحَاسَبَتِهِ وَمُعَاوَنَتِهِ تُعَدُّ مِنَ أَبْيَنِ وَأقصَرِ وأَصَدِقَ الخُطَبِ السِّيَاسِيَّة في تاريخِ بَنِي البَشَرِ القَدِيمِ وَالحَدِيثِ.

تعاون الخلفاء الراشدين

عاش الخلفاء الراشدون في كنف رسولِ اللهِ (صلى الله عليه وآله وسلم) وبصحبته = كبقية الأصحاب = ينهلون من معين النبوّة، ويستقون من ينبوع الرسالة، حتى عَمرَ الإيمانُ قلوبهم، وملأتِ الهدايةُ عقولَهم، وارتاحت إلى الحقّ نفوسهم، فكانوا الخلفاءَ الراشدينَ حقًّا، بكتاب الله وسنَّة رسوله يسترشدون؛ وإلى إعلاء الدين، وخير الأمة، وصلاح المسلمين، يُرْشِدون.

وقد تسلّموا، واحدًا تلو الآخر، مقاليد الحكم، وقيادة الدولة الإسلامية، ولم يكن لهم من همّ إلا أن يحافظوا على العهد، ويؤدوا الأَمانةَ، فتتواصلُ المسيرةُ التي قادها الرسول العظيم محمدٌ (صلى الله عليه وآله وسلم)، وتبقى راية الإسلام خفّاقة يحملها جنودٌ لله تعالى إلى البعيد البعيد...

هؤلاء همُ الخلفاءُ الأربعةُ الراشدون، الذين برزوا عظماءَ في التاريخ وبرز التاريخ بهم عظيمًا... وكيف لا يكون وجهُ التاريخ نقيًّا، ناصِعَ البياض، وهو ينقل أعمالَ العظام من بني البشر، فيسير مع سيرهم ويتكلم بكلامهم، حتى إذا أُخرجت نسْمَةُ الحياة من أجسادهم، وقف يتفاخر، وإن كانت أثواب الحزن تسربله – لأنَّه يحمل في طياته السجل الذهبي لأولئك العظام، حافظًا للأجيال صنيعَ فعالهم الجميل، ناشرًا على العصور ذكرياتهم الطيبة.. وهو كلما هبّت رياح التغيير في الحياة، يستوي منتصبًا ليشد أهل التغيير إليه، فيعثروا على جليل القدوة، وصحيح العبرة، ويتخذوا قويم السبيل، ونبيل الغاية في ما فيه يفكرون، وما إليه يطمحون.

ذلك هو التاريخُ العظيم الذي كرَّسهُ العظماءُ... ولئن كنا نجد في صفحات العصور الماضية، ذكرًا لأشخاصٍ تافهين، حقيرين، ممن أساؤوا إلى الإنسان وإلى الحياة، فإنَّ التاريخ لم يحمل ذلك الذكر إلا ليدُلَّ به على عظمة العظماء من خلال عِظَتِهِ بمنْ هم على خلافهم، إذ لولا الشرُّ لما عرفنا معنى الخيرِ ولولا الظلام لما أدركنا حقيقة النور..

ولكن، مهما أظهر التاريخ أهل السوء، فإن ذلك يتمُّ لكي يعيَ الإنسانُ ويستدرك نفسه، فإنَّ السموَّ والرفعة يبقيان لأفذاذه وعظمائه الذين يشرّفونه فيَشْرُفُ بهم، ويمجدونه فيمجَّدُ بهم. ألا للهِ سبحانه وتعالى وحده العزة والمجد.. ومن يطلع على حقيقة التاريخ الإسلامي، بعيدًا من التعصّب والتزوير، يجد أنه أشرفُ تاريخٍ وأمجَدُهُ فيما حفظ من سيرةٍ لرسولِ اللهِ (صلى الله عليه وآله وسلم)، وفيما احتوى، من بعده، من قيمةٍ لخلفائه الأربعة الذين صانوا دين اللهِ وقادوا المسلمين في دروب الحقّ والعدل، وكانوا إلى جانب بعضهم بعضًا، إخوةً متكاتفين يتسامحون، وصحابةً متعاونين يتشاورون، وليس لهم من غاية إلا رضوان اللهِ عزَّ وجل..

ولن نقف هنا عند حياة كل واحدٍ منهم، ففي بطون الكتب ما يحفل بعظيم تلك الحياة، لكننا نكتفي ببعض الوقائع التي تدلُّ بإخلاص على تعاونهم، حتى يتنبَّهَ المسلمون إلى أمر مهم وضروري، ألا وهو أن ما يختلفون عليه اليوم وبسببه، قد أبعده خلفاءُ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) عن حياة الأمة والمسلمين، فعملوا يدًا بيدٍ، وقلبًا مع قلب، وكان كل واحدث منهم للآخر كحجر البنيان المرصوص.

وهذا غيض من فيض، مما يدل على ذلك التعاون الإسلامي الصحيح، ومما يدل على أنَّ التاريخ كان يحصي عليهم حركاتهم وسكناتهم كما كان يسجّل لهم مواقفهم من الأحداث الجسام ومعالجتهم للمشاكل المستجدة.

ــ عن أنسٍ (رض) قال: «كان رسولُ الله (صلى الله عليه وآله وسلم) جالسًا في المسجد وقد اجتمع إليه أصحابُه، إذ أقبل علي (رض) فسلّم ثم وقف ينظر مكانًا يجلس فيه، فنظر رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى وجوه أصحابه، أيهم يوسّع له، وكان أبو بكر (رض) إلى يمين رسولِ اللهِ (صلى الله عليه وآله وسلم) فتزحزح من مجلسه وقال: ها هنا يا أبا الحسن. فجلس علي (رض) بين رسولِ اللهِ (صلى الله عليه وآله وسلم) وأبي بكر (رض) فرأينا السرورَ في رسولِ اللهِ (صلى الله عليه وآله وسلم) ثم أقبل بوجهه الشريف على أبي بكر يقول له: «يا أبا بكر إنما يُعرف الفضل لأهل الفضل».

ــ وأخرج الطبري عن صخر حارس رسولِ الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: «كان خالد بن سعيد بن العاص في اليمن عندما توفي رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، وبعد شهر من وفاته قدم المدينة وعليه جبةُ ديباج، فالتقى به عمرُ وعلي (رضي اللهُ عنهما) وهما يسيران معًا، فصاحَ عمر بالناس: مزقوا عليه جبته، أيلبس الحرير، وهو في رجالنا في السلم مهجور؟ فمزقوا جبته.. ونظر خالدٌ بخبث ثم

صاح: يا أبا الحسن! يا بني عبد مناف! أغُلبتم عليها؟ فقال له علي (رض): أمغالبة ترى أم خلافة؟ قال خالد: لا يغالب على هذا الأمر أولى منكم يا بني عبد مناف. فلم يردَّ عليه علي (رض) بل قالَ له عمر (رض) فضَّ اللهُ فاك واللهِ لا يزال كاذب يخوض فيها».

ـ ثم نذكر شيئًا من سيرة رجلٍ آخر، بعد الإشارة إلى هذا الرجل الذي يدلُّ ماضيه على محاربة الدعوة وعداوتها، إذ لما أسلم لم يكن إسلامُهُ خالصًا للهِ تعالى، بل كان من المؤلفة قلوبهم، الذين دانوا بالطاعة والولاء لسلطان الحقّ لأغراض تنوعت وتعدّدت.. وأمثاله من الناس لم يكن ليطيب لهم أن يرَوا الإسلام عزيزًا، منيع الجانب، فإنْ رأَوا سبيلًا للفتنة أو التفرقة أثاروه... فهذا أبو سفيان بن حرب، زعيم قريش في عهد الشرك،نراه بعد مبايعة أبي بكر (رض) بالخلافة، يدخل على علي بن أبي طالب وعمه العباس (رضي اللهُ عنهما) ومرادُهُ أن يثيرهما فيعرض عليهما النجدة والمعونة. وهو يهيب بكل واحدٍ منهما باسمه، قائلًا: «يا علي، وأنتَ يا عباسُ! ما بالُ هذا الأمرِ في أذلّ قبيلةٍ من قريش وأقلّها؟ واللهِ لو شئتَ يا عليُّ لأملأنها عليه (يعني على أبي بكر) خيلًا ورجلًا وآخذها عليه من أقطارها»... ثم يكون جواب عليٍّ (ع) بما هو أهلُهُ فيقول: «واللهِ لا أريد أن تملأها عليه خيلًا ورَجْلاً. ولولا أننا رأينا أبا بكر لذلك أهلًا ما خلّيناه وإيّاها». ولا يلبث عليٌّ = بعد أن يتفرَّسَ في وجه أبي سفيان = أن يتابع قائلًا له: «يا أبا سفيان! إن المؤمنين قومٌ نَصَحَةٌ بعضُهم لبعض، وإنَّ المنافقين قومٌ غَشَشَةٌ بعضُهم لبعض متخاونون وإنْ قربت ديارهم وأموالهم...

ـ وإذا كان هذا شأن أبي سفيان الذي أعطاه النبيُّ (صلى الله عليه وآله وسلم) جاهًا يومَ فتحِ مكةٍ، ذلك الجاه الذي لو تفكَّرَ به لكرَّس ما بقي من عمره تائبًا، مستغفرًا مضحيًا في سبيل اللهِ، بعد قول النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) يومئذٍ للناس: «ومَن دخَلَ دار أبي سفيان فهو آمن».. نعم إذا كان هذا شأن الرجل فما بالنا بالأعراب الذين ينتشرون في البوادي؟ وكيف تكون نظرتهم للإسلام؟ وهل يلامون إذا رأوا أن النبيَّ (صلى الله عليه وآله وسلم) قد توفي، فارتدّوا إلى الكفر؟ لا، فإنهم وقد ساعدهم ما أشرأبَّ من نفاق في المدينة ـ فأخذوا ـ يقولون.

لقد مات هذا الرجل = يعني رسول اللهِ (صلى الله عليه وآله وسلم) = الذي كان المسلمون ينتصرون به.

وقامَ أبو بكر (رض) يتصدَّى لأهل الردَّة، فجمع المهاجرين والأنصار يعرض عليهم الأمر، ويطلب مشورتهم، فقال: «إنَّ العربَ قد منعوا شاتهم وبعيرَهَم ورجَعوا عن دينهم وإنهم قد تواعدوا ليَجمَعُوا لقتالكم، وزعموا أن محمدًا (صلى الله عليه وآله وسلم) الذي كنتم تُنصرون به قد مات.. فأشيروا عليَّ، فما أنا إلا رجل منكم وأثقلُكُم حملًا لهذه البنية»..

وراح المؤمنون يتفكرون حتى تكلّم عمر بن الخطاب (رض) فقال: «أرى والله، يا خليفةَ رسول اللهِ أن تقبَلَ من العرب الصلاةَ وتدَعَ لهمُ الزكاة، فإنَّهُمْ حديثو عهدٍ بجاهليةٍ لم يعدهُمُ الإسلامُ، فإمَّا أن يَرُدَّوهُمُ الله إلى خيرٍ، وإما أن يُعِزَّ اللهُ الإسلامَ فنقوى على قتالهم»...

ووافق أكثرية المجتمعين من المهاجرين والأنصار على ما أبداه عمر (رض)... لكنَّ أبا بكر (رض) انتفضَ لذلك، فصعد المنبر، وحَمَدَ اللهَ وأثنى عليه، ثم قال:

«أما بعد، فإنَّ اللهَ بعثَ محمدًا (صلى الله عليه وآله وسلم) والحقُّ ضعيفٌ شريدٌ، والإسلامُ غريبٌ طريدٌ، قد وَهَنَ حبلُهُ وقلَّ أهلُهُ، فيجمَعَهُمُ الله بمحمدٍ (صلى الله عليه وآله وسلم) وجعلهم الأمةَ الباقيةَ الوسطى. واللهِ لا أبرح أقومُ بأمر اللهِ وأجاهد في سبيل اللهِ حتى يُنجزَ اللهُ لنا ويفي لنا بعهده، فيُقتَلُ من قُتِلَ منا شهيدًا في الحنة، ويبقى من بقي منا خليفةَ اللهِ في أرضه ووارثَ عباده الحقَّ، فإنَّ اللهَ تعالى قالَ وليس لقولِهِ خلفٌ: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ} [النور: 55] واللهِ لو منعوني عِقالًا مما كانوا يعطون رسول اللهِ (صلى الله عليه وآله وسلم)، ثم أقبَلَ مَعَهُمُ الشجَرُ والمدَرُ والجِنُّ و الإنسُ لجاهَدْتُهُمْ عليه حتى تلتحِقَ روحيَ باللهِ، إنَّ الله لم يفرّق بين الصلاة والزكاة».

ووقف عمر مكبّرًا، فتعالت من المسلمين صيحةُ التكبير، وعزموا على القتال.

وأرادَ أبو بكر الصديق أن يخرج إلى ذي القصة أي في حروب الردّة، فشهَر سيفَهُ وركب راحلته، فلما رآه علي بنُ أبي طالب (رض) اعترضَهُ وقال: «إلى أين يا خليفةَ رسولِ اللهِ؟... أقول لك ما قالَ رسولُ اللهِ (صلى الله عليه وآله وسلم) يوم أحُد: «لُمَّ سيفَكَ ولا تفجعنا بنفسك»...

فواللهِ لئن أُصبْنا بك لا يكون للإسلام بعدك نظام أبدًا»....

ووافق أبو بكر عليًّا (رضوان الله عليهما) الرأي فأمضى الجيش ورجع..

ـ وفي أيام خلافة أبي بكر الصديق رُفِعَ إليه رجلٌ قد شَرب الخمر. وأرادَ أن يُقيمَ عليه الحدَّ فادّعى الرجُلُ أنه لم يكن يعلمُ بتحريمها، لأنه نشأ بين قوم يستحلّونها... وكان في المجلس أناسٌ كثيرون فلما شاورهم في الأمر أشاروا عليه بأن يستعلِمَ الحُكمَ في الرجل من علي بن أبي طالب ـ عليه السلام ـ فأرسل الخليفةُ إليه من سأله عنه، فقال له: «يطوفُ به رجلان من المسلمين على مجالس المهاجرين والأنصار، فإنْ تبين أن أحدًا تلا عليه آيةَ التحريم: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ} [المائدة: 90]، أو أخبرَهُ بتحريمها أقيم عليه الحدُّ. وإنْ لم يتبيّن ذلك فلا شيء عليه».

وعَمِلَ الخليفةُ أبو بكر برأي علي (رضي اللهُ عنهما)، فلما لم يشهدْ أحَدٌ على الرجل أنه تلا عليه الآية أو أُخْبِرَ بتحريم الخمر، استتابه أبو بكر (رض) وخلى سبيله.

ـ وانتقَلَ أبو بكر الصديق إلى الرفيق الأعلى، فقال علي (رض). في تأبينه: «كنتَ كالجبل الذي لا تحركه العواصف، ولا تزيلُهُ القواصِفُ، كنتَ كما قال رسول اللهِ (صلى الله عليه وآله وسلم) ضعيفًا في بدنك، قويًّا في أمر اللهِ، متواضعًا في نفسك، عظيمًا عند اللهِ، خليلًا في الأرض، كبيرًا عند المؤمنين، ولم يكن لأحدٍ عندك مطمعٌ، ولا لأحدٍ عندك هوادةٌ، فالقويُّ عندك ضعيف حتى تأخذ الحقَّ منه، والضعيفُ عندك قويٌّ حتى تأخذَ الحقَّ له»...

أوَ بَعدَ رثاء عليّ (ع) هذا يكون لأبي بكر (رض) مكانةٌ، في نفس أحد أرفعَ وأعلى مما هي في نفس علي (ع)؟

ولم تكن أخلاقُ علي (رض) لتختلفَ حيالَ الخليفة الثاني عمر بن الخطاب، ولا كان تعاونهما أقلَّ.

وهذه الشواهدُ ثابتةٌ لم يختلف عليها أحَدٌ من المؤرخين...

ـ فقد خطب عمر بن الخطاب أمَّ كلثومٍ بنت علي بن أبي طالب (رضي اللهُ عنهم جميعًا)، فقال له عليٌّ: إنها تصغر عن ذلك.

قال عمر: سمعت رسولَ اللهِ (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول: «كلُّ سببٍ ونسبٍ منقطعٌ يومَ القيامة إلاَّ سببي ونسبي»، فأحببتُ أن يكون لي من رسول اللهِ (صلى الله عليه وآله وسلم) سببٌ ونسبٌ.

فقال علي لولديه الحسن والحسين ــ سلام الله عليهما : «زوّجا عمّكما».. فزوَّجاه أختهما أمَّ كلثوم.

ــ واستشار عمر عليًّا (رضي اللهُ عنهما) في الخروج على رأس الجيش لغزو الروم. فنصَحَهُ علي قائلًا: «قد تَوَكَّلَ اللهُ لأهل هذا الدين بإعزازِ الحوزةِ[3] وسترِ العورةِ، والذي نصَرَهُم وهُمْ قليلٌ لا ينتصرون، ومنَعَهُمْ وهُمْ قليلٌ لا يمتنعون، حي لا يموت.. إنك متى تَسِرْ إلى هذا العدو بنفسك فتَلْقَهُمْ فتُنكَبْ لا تكنْ للمسلمين كانفة[4] دون أقصى بلادهم، ليس بعدك مرجعٌ يرجعون إليه، فابعث إليهم رجُلًا مِحْرَبًا[5] ، واحْفِزْ[6] معه أهلَ البلاء[7] والنصيحة، فإن أظهر اللهُ فذاك ما تحبُّ، وإنْ تَكُنْ الأخرى كنت رِدْءًا[8] للناس ومثابة[9] للمسلمين».

ــ وذُكِرَ أن عمر (رض) أُتِيَ بامرأةٍ معتوهةٍ وقد زَنَتْ فرأى أن يرجُمَها. وكان علي في المجلسِ، فطلب أن يخلى سبيلُها وقال للخليفة: إنها معتوهة، وقد قال رسول اِلله (صلى الله عليه وآله وسلم): رفع القلم عن ثلاث: عن النائم حتى يستيقظ، والصبي حتى يحتلِمَ، والمجنون حتى يفيق»... فامتنع عمر عن رجمها.

ــ وأُتِيَ بامرأة أخرى وضعت حَمْلَها لستةِ أشهر عن تاريخ زواجها. فأمر عمر (رض) برجمها، فأنكر عليه (عليه السلام) حكمَهُ وأرجَعَهُ إلى كتابِ اللهِ الكريم بقوله تعالى: {وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلاَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ} [البقرة: 233] وقوله تعالى: {وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا} [الأحقاف: 15].

---

[3] الحَوْزَة: ما يحوزُه المالك ويتولى حفظه. وإعزازُ حوزة الدين: حمايتها من تغلب إعدائه.

[4] كانفة: عاصمة يلجؤون إليها، من كنفه إذا صانه وستره.

[5] محرب، العارف بالحرب، الشجاع.

[6] حفز: أمر من الحفز، وهو الدفع، والسوق الشديد.

[7] أهل البلاء: أهل المهارة في الحرب، مع الصدق في القصد، والجرأة في الإقدام. والبلاء: هو الإجادة في العمل وإحسانه.

[8] الردء: الملجأ.

[9] المثابة: المرجع

عندها قالَ عمر (رض): «اللهمَّ لا تُبقِني لمعضلةٍ ليس لها ابنُ أبي طالب».

فقد لا يقف المسلمون عند هذه الحادثة، إلا على أنها من قبيل تعاون الخلفاء الراشدين، لكنَّ أبعادَها الحضارية لا تقلُ أهمية عن جلالتها الأولى، فقد بات معلومًا في علم التوليد أنَّ أقلَّ مدة الحمل عند المرأة ستة أشهر. فإذا أخذنا الآيتين القرآنيتين: الأولى تنص على مدة الرضاعة حولين كاملَين أي أربعة وعشرين شهرًا. والثانية التي تنصُّ على المدة القصوى للحمل والرضاعة وهي ثلاثون شهرًا، فإنْ طرحنا مدة الرضاعة من الثلاثين شهرًا لكان بالإمان أن يكون الحمل لستة أشهر.. هذا ما جاءَ به القرآن منذ ما يزيد على ألف وأربعمئة سنة، وجاءَ العلمُ الحديث يؤكده، فهل تعرَّف المسلمون إلى ما في كتابهم من حقائق وشاهد ثابتة؟!

ـ ومثال آخر عن القبول بحكم الله، وتطبيق هذا الحكم بصدق وإخلاص، ما جاءَ في حادثة المرأة التي زَنَتْ وهي حامِلٌ، فأَمَرَ الخليفةُ عمر (رض) بأن تُرجَمَ، إلا أن عليًّا (ع) ذكَّره بحكم الله سبحانه وقال: هبْ أنَّ لك عليها سبيلًا، فأيُّ سبيل لك على ما في بطنِها؟ إن الله سبحانَهُ يقول: {وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى} [فاطر: 18]... إن الحكم على هذه المرأة أن تحتفظ بها حتى تَلد، فإذا ولَدَتْ ووجَدَتْ لولدِها من يكفلُهُ فأقِمْ عليها الحدّ». فامتثل عمر لقول الله عزَّ وجل وأوقف الحد عن المرأة.

ـ وأما عن المحبة التي كانت تؤلف بين قلوب الأبرار الصالحين، فمنه ما ذكر من أنَّ عمر بن الخطاب (رض) كان ينتظر مرةً الحسينَ بن علي (رض) على موعِدِهِ له، وبينما الحسينُ (رض) ذاهب إليه لقيَ في الطريق ابنَهُ عبدالله بن عمر، فسأله: من أين جئت يا عبدالله؟ قال: استأذنت على عمر فلم يأذنْ لي...

ورجع الحسين (عليه السلام) ولم يتابع ذهابه إلى الخليفة، حتى كان يومًا ولقيَهُ فسأله معاتبًا:

ـ ما منعك يا حسين أن تأتَيني على موعدك؟

قال: لقد أتيتك ولكنْ أخبرني عبدالله بن عمر أنّه لم يؤذن له عليك فرجعتُ.

فعزَّ ذلك على عمر وقال له: وأنتَ عندي مثلُهُ؟ وهل أنْبَتَ الشعر على الرأس غيرُكم؟

ـ وكسا عمرُ يومًا أصحابَ النبيَّ (صلى الله عليه وآله وسلم) فلم يكنْ في الأكسية ما يَصلُحُ للحسن والحسين ـ عليهما السلام ـ فبعثَ إلى اليمن فأتى لهما بكسوةٍ تصلُحُ لهما، وقالَ حين رآهما: الآن طابت نفسي.

ـ وسافَرَ الخليفة عمر (رض) إلى الشام فاستخلف عليَّ بنَ أبي طالب (رض) على المدينة وأخذ نفسَهُ باستفتائه والرجوع إليه...

ذلك هو التعاون الحقّ بين ذوي الفضل وأهلهِ، ومسيرة ذلك التعاون وفاءٌ دائمٌ إنْ في حياة أصحاب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أو بعد مماتهم، فقد بلغ عليًّا ـ عليه السلام ـ أن عبد الله بن الأسود يتنقص أبا بكر وعمر ـ رضي الله عنهما ـ فدعا بالسيف فَهَمَّ بقتله، فكُلِّم فيه، فقال: «لا يسُاكنني في بلدٍ أنا فيه».

ولقد نفاه إلى الشام حتى يكون عبرةً لسواه.

أما علاقة علي بالخليفة الثالث عثمان بن عفان (رضي الله عنهما وأرضاهما) فلا تختلف أبدًا عن علاقته بالخليفتين السابقين، فقد كان ذو النورين، كما كان الإمام، صهرًا لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم). فعندما تولى عثمان (رض) الخلافة، يروى أن عليًّا ـ عليه السلام ـ شقَّ صفوف المسلمين في المدينة ليبايعَهُ ويَضَعَ كل إمكاناته في نصرة الدين ورعاية شؤون المسلمين، وبالفعل كان الخليفة يستعين دائمًا بعلي (ع) وخصوصًا عندما تشتدُّ عليه الأمور... وإنَّ في حادثة مقتل عثمان، كما روتها بطون التاريخ، لأكبر دليلٍ على حرص علي (رض) على الإسلام والمسلمين، وعلى خليفة المسلمين... فعندما جاءَ أهل مصر يشتكون أمرَ واليهم من قبل الخليفة، عبدالله بن أبي سرح، جاءَ صحابةُ النبيُّ (صلى الله عليه وآله وسلم) يعرضون الأمرَ على عثمانَ، ويطلبون إليه أن يدفع إليهم مروان بن الحكم لأنه سبب الشكاية والمظالم، فأبى، وخرج الصحابةُ غضابًا. وحاضر الناسُ عثمانَ، منعوه الماءَ، فأشرفَ عليهم وقال: أفيكم عليٌّ؟ قالوا: لا. قال: أفيكم سعدٌ؟ قالوا: لا... فسكت ثم قال: ألا أحد يبلغ عليًّا فيسقينا ماءً؟ فبلغ ذلك عليًّا (ع) فبعث إليه بثلاث قربٍ مملوءة ماء، فما وصلت إليه إلا بعد أن جرح بسببها عدة أشخاص.. ولما بان لعليٍّ (رض) أن عثمان يُرادُ قتله، قال مسترجعًا إلى الله: إنما أردنا فيه مروان، فأما قتل عثمان فلا، ولم يتوانَ عن بذل النصرة له، بل أسرع يبعث ولدَيه الحسن والحسين (ع) سبطي رسول الله

(صلى الله عليه وآله وسلم) وهو يقول لهما: اذهبا بسيفيكما حتى تقوما على باب عثمان فلا تدَعا أحدًا يصل إليه.

وكان ما كان وقتل الخليفة عثمان ــ رحمه الله ــ واجتمَعَ الصحابة عندما بلغهم الخبر، فتقدم علي من ولديه يسألهما: كيف قتل أمير المؤمنين وأنتما على الباب؟ ثم انصرف إلى بيته وهو غضبان يسترجع.. وإذا كان هذا شأن عليٍّ مع الخليفة عثمان (رضي الله عنهما) فإنَّ معاوية بن أبي سفيان وحاشيته في الشام، كانوا يصورون دائمًا للناس الذين لا يعرفون شيئًا عن علي (ع) إلاَّ إنه كان خصمًا لأبي بكر وعمر وعثمان (رضي الله عنهم جميعًا)، وأنه يريدُ الخلافة لنفسه، وهو طامع فيها، وأنه متواطئٌ مع قتَلةِ عثمان، فهؤلاء المرجفون، أمرهم متروك إلى الله تعالى وهو يحاسب كل امرئ على أفعاله ونواياه.. لكنَّ إرجافهم كان واضحًا عند كل ذي بصيرة، فقد أخرج ابن عساكر عن أبي خلدة الحنفي أنه قال: «سمعت عليًّا (ع) يقول: إنَّ بني أمية يزعمون أني قتلت عثمان، ولا والله الذي لا إله إلا هو ما قتلت ولا مالأتُ، ولقد نهيت فعَصَوْني». فهل بعد هذه اليمين من مستمسك على صهر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وأخيه وابن عمِّه؟

والحقُّ يقالُ أن عليًّا (ع) كان أزهَدَ الناس في الحكم. بعد مقتل عثمان (رض). فقد اجتمَعَ أمرُ الصحابة على مبايعته. فأسرع إليه ابن عمه عبد الله بن عباس (رض) يبشره بالخبر، فرآه يخصف نعلَهُ، فتعجب ابن عباس وقال: يا ابن العم، سامحك الله، المسلمون يريدون أن يبايعوك وأنت تقوم بما تقوم به الآن؟ فأجابه علي إجابةَ الواثقِ المطمئن، غير المبالي بحكم ولا إمارة: «يا ابنَ العم: إنَّ إمْرَتَكُمْ لأهْوَن من هذه النعل إلا أن أُحِقَّ حقًّا وأُبطِلَ باطلًا»... وجاءَ الناسُ يهرعونَ إليه، فقالوا له: نبايعك فمدَّ يدك فلا بدَّ من أمير، فقال علي: «ليس ذلك إليكم، إنما ذلك إلى أهل بدر، فمن رضي به أهلُ بدر فهو خليفة، فلم يبقَ أحد من أهل بدر إلا أتى عليًّا (ع) فقالوا له: ما نرى أحدًا أحقّ بها منك، مُدَّ يدك نبايعك... فبايعوه.

وأقام العدل وهو في الحكم، فجاءه يومًا رجلٌ يقول له: إنَّ عثمانَ في النارَ! قال له علي: ومن أين علمت؟... قال الرجل: لأنه أحدث إحداثًا. فقال له علي: أتراك لو كانت لك بنتٌ أكنت تزوّجُها حتى تستخيرَ؟ قال الرجل: لا... قال علي: أفرأيُك هو خيرٌ من رأي رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لابنتَيْه؟ وأخبرني أيها الرجل عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أكان إذا أرادَ أمرًا يستخيرُ الله أو لا

يستخيره؟. قال الرجل: لا، بل كان يستخيره... قال علي: أفكانَ الله يخيرُ له أم لا؟ قال: بل يخيرُ له. قال علي: فأخبرني عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أختارَ الله له في تزويجه عثمانَ أم لم يخترْ له؟.. وسكت الرجل، فقال له علي: لقد تجردتُ لك لأضرب عنقك، فأبى الله ذلك. أما والله لو قلتَ غير ذلك لضربتُ عنقَكَ.

وفي زمن خلافة علي (رض) حدثت واقعة الجمل التي قادها طلحةُ والزبيرُ تحت شعار المطالبة بدم عثمان، فقال علي في تلك الموقعة، وهو يسمَعُ من ينادون: يا لثارات عثمان!، قال: «أللَّهمَّ كُبَّ اليومَ قتلَةَ عثمان على وجوههم».. ولقد قتل في تلك الموقعة كل من طلحة والزبير... وكانت المؤامرة التي قتل فيها علي بن أبي طالب (ع) غدرًا على يد أحد الخوارج المدعو عبد الرحمن بن ملجم، ومن بعده استتبَّ الأمرُ لمعاوية بن أبي سفيان في الشام، فجاءه يومًا عامرُ بن وائلة، أحدُ محبي أهل بيتِ رسول الله، وكان مشهورًا بهذا الحب، فسأله معاوية: كيف وَجْدُك على خليلِكِ أبي الحسن؟ (ويعني به عليًّا عليه السلام). قال عامر: كوجْد أم موسى على موسى (ع)، وأشكو إلى الله التقصير.

قال معاوية: لقد كنتَ يا عامِرُ فيمنْ حَصَرَ عثمان. قال له: لا، لكنني كنت فيمن حَضَرَهُ، قال معاوية: وما منعك عن نُصرتِهِ؟ قال عامرٌ: وأنت ما منعك في نصرتِهِ إذ تربّصت به ريبَ المنونِ، وكنتَ في أهل الشام، وكلُّهُمْ تابعٌ لك؟

فقال له معاوية: أو ما ترى طلبي لدمِهِ نُصرةً له؟

قال له عامرٌ: إنكَ يا معاوية لَكَما قال الشاعِرُ:

لأَلْفَيَنَّكَ بعد الموتِ تَنْدُبُني وفي حياتيَ ما زوَّدْتَني زادا

وكما سأَلَ معاويةُ عامِرَ بنَ وائلةَ عن مقتل عثمان، يسألُ مرّةً أخرى ضِرارَ بنَ ضمرة الكنانيّ أن يحدّثَهُ عن علي بن أبي طالب (ع) ويظهر له صفاته. وراح معاوية يُلحُّ على ضرار في السؤال، وهذا يحاول أن يتملَّصَ من الإجابة فلا يقول شيئًا، لكنه يطلب إلى معاوية أن يعفيه من هذا الأمر. إلا إن معاوية لم يقبل وقال له: لا أُعفيكَ!... عندها قال ضِرارُ: أما إذ لا بُدَّ فإنه كان والله بعيدَ المدى، شديدَ القوى، يقولُ فصلًا، ويحكم عدلًا. يتفجَّرُ العلم من جوانبِهِ، وتنطقُ الحكمةُ من نواحيه. يستوحشُ الدنيا وزهرتها، ويستأنس كفَّهُ ويخاطبُ نفسَهُ. كانَ والله كأحدِنا يُدنينا إذا أتيناهُ، ويجيبنا إذا سألناه، وكان مع تقرُّبِهِ إلينا

وقربه منا لا نكلّمُهُ هيبةً له، فإنْ تبسَّمَ فعَنْ مثلِ اللؤلؤِ المنظوم، يُعظِّمُ أهلَ الدين، ويحبُّ المساكينَ، لا يطمَعُ القويُّ في باطِلِهِ، ولا يَيْأسُ الضعيفُ مِنْ عدلِهِ، فأشهدُ الله لقد رأيتُهُ في بعضِ مواقفِهِ... وقد أرخى الليلُ سُدولَهُ وغارتْ نجومُهُ ــ يميلُ في محرابِهِ قابضًا على لحيتِهِ، يتململُ تململَ السَّقيم، ويَبكي بكاءَ الْحَزينِ، فكأنّي أسمَعُهُ الآن وهو يقول: يا ربَّنا، يا ربَّنا... يتضَرَّعُ إليه، ثم يقولُ لِلدُّنيا: إليَّ تَغَرَّرْتِ، إليَّ تَشوَّفْتِ، هيهاتَ، هيهاتَ، غُرّي غيري طَلَّقْتُكِ ثلاثًا لا رَجْعَةَ بعدها، فَعُمْرُكِ قصيرٌ ومَجْلِسُكِ حقيرٌ، وخطرُكِ يسيرٌ. آهِ، آهِ، من قِلّةِ الزاد، وبُعد السفَر، ووحشةِ الطريق»...

هذه = بكلماتٍ = بعضُ صفات الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، وقد قالَها ضِرار أمامَ من انقلَبَ على علي، وناصبَهُ العداءَ حُبًّا بالحكم والشهرة.

وقد سألَ معاويةُ ضِرارًا، بعدما أكمل حديثَه: وكيف وجْدُكَ عليه يا ضِرارُ؟

قال الرجلُ المنصف ضِرارٌ: كوجْدِ مَنْ فقدت وحيدَها في حِجْرِها لا ترقَأُ دَمْعتُها ولا يسكُنُ حزنها...

هذه شذراتٌ عن تعاون الخلفاء الراشدين ــ رضي الله عنهم جميعًا ــ وعن إخلاصهم بعضهم لبعض، ووفائهم الذي رافقَ كلَّ واحدٍ منهم حتى توفّاه الله... وإنَّ في تلك الصِلات الوثيقة ما يُغنينا عن كل تفكيرٍ في نزاعٍ أو خلاف، يحاول الأعداءُ أن يجعلوه قضيةً بين المسلمين، ومأربهم في ذلك إضعافُهم وذُلّهم. فإلى سيرة الخلفاء الراشدين، بعيدًا من كل خلفيةٍ في أذهاننا، نحتكم اليومَ حتى نستعيدَ أنفسنا، نحن المسلمين، ونرى طريقَنا السويَّ الذي يحقق وحدتنا، ويقوّي كياننا، فنرضي الله ورسولَهُ، ونصلح أحوال الأمة.

الإِمامُ زَيْد

وهذَا هُوَ الإِمامُ زيد بن علي زينِ العابدين (ع) ورث تقديرَ واحترامَ وحبَّ الراشدينَ عن آبائِهِ واجدادِهِ.

وهذا هشامُ بْنُ عبدِ الملكِ ورثَ كرْهَ وحقدَ وعصبيةَ يزيد ومَنْ شاكلهُ.

تلقَّى الإمامُ زيدٌ في نشأَتِهِ الأُولى الفقهَ عَنْ أَبيهِ. فقد كانَ واسعَ العلمِ والمعرفةِ، وكانَ يأْخذُ بكتابِ الله تعالىَ ثم بسنَّةِ رسولِ اللهِ (صلى الله عليه وآله وسلم) فقد روي عن عبدالله بن مسلم بن بابك أنه قال: «خرجنا مع زيد بن علي إلى مكة فلما كان نصف الليل واستوت الثريا قال: يا بابكي أما ترى هذه الثريا! أترى أحدًا ينالها؟ قلت: لا، قال: والله لوددت أن يدي ملصقة بها فأقع إلى الأرض أو حيث أقع فأتقطع قطعة قطعة، وأنَّ الله أصلح بين أمة محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)». وقد روي عن محمد بن الفرات، قال: «رأيت زيد بن علي وقد أَثَّر السجود بوجهه أثرًا خفيفًا». وإذا كانَ أَبُوهُ تركهُ يافعًا فإنَّ أخاهُ محمدًا الباقرَ قد خلفَ أَباهُ في إمامةِ العلمِ والفقهِ وكانتْ لَهُ مثلُ أخلاقِهِ ومثلُ ورعِهِ. وكانَ مثلَهُ كذلك في احترامِهِ لسلفِ هذهِ الأُمّةِ وخصوصًا لأَبي بكرٍ وعمرَ رضي الله عنهما.

تخرجَ الإمامُ زيدٌ في تلكَ المدرسةِ النبويّةِ بالمدينةِ إِذْ إنَّ أولئكَ الأَجلاء بعدَ أَنِ أمتحنهمْ الله تعالى ذلكَ الامتحانَ الشَّديد في السياسةِ، وفتكَ بهمُ الغدر وسوءُ الجندِ، وظلمُ الفئة الباغية من الحكامِ، اعتزلُوا كلَّ شيءٍ وتفرّغُوا لحملِ الدّعوة الإِسلاميّةِ.

قالَ أبو حنيفةَ رضي الله عنهُ لمنْ سأَلهُ عمّن تلقَّى علمَهُ: كنتُ في معدنِ العلمِ، وبذلك يُشيرُ إلى الإمامِ زيد سلام الله عليه.

نعمْ لقدْ كانَ في معدنِ علمِ الإسلامِ ومنزلِ الوحيِ وموطنِ الشَّريعةِ الإِسلاميّةِ الذي نزلتْ فيهِ وطُبِّقتْ وعملَ بها الصّحابةُ، وتوارثَ أَهلُها أعمالَ السلفِ الصّالحِ، تلكَ هيَ المدينةُ المنوّرة الّتي كانتْ موطنَ الإسلامِ، وفيها تلقَّى زيدٌ علم الفروعِ والحديثِ وحفظِ القرآن، وكانَ من أَعلمِ أهلِ عصره بِقراءَات القرآنِ وأكثرهمْ فهمًا وإدراكًا لمراميهِ.

ولما أَخذتِ الدّولة الأَمويّةُ في الضعفِ بَعْد عهدِ الوليدِ بْنِ عبدِ الملكِ وعمرَ بْنِ عبدِ العزيزِ أَخذَ التظنُّنُ بأَئمّةِ أَهلِ البيتِ يقوَى ويشتد وخصوصًا أَنَّ الدّعوة إلى تغيير الخلافةِ الأَمويّةِ قد بدأَتْ تنمو وتزيدْ. وفي عام 102هـ ابتدأَتِ الدّعوةُ للدولةِ الهاشميةِ في عهدِ هشام بْنِ عبدِ الملكِ، وقد كانَ منْ أقوى ملوكِ بني أُميّةَ، إِذْ إِنَّهُ أَخذَ يرقبُ هذهِ الدّعوةَ ببصرٍ حديد ويأَمرُ ولاتَهُ بأَخذِهَا بشدّةٍ.

كانَ هشامُ القويُّ ينظر إلى الهاشميينَ نظرةَ الحريصِ المستيقظِ، عرفَ حبَّ النَّاسِ لهم خاصّةً وقد ظهرَ شابٌّ مِنْ أَقوى شبابِهم أَخذَ يجوسُ خلالَ الدّيارِ وكان هُو زيدُ بْنُ عليٍّ زينِ العابدينَ. عندئذٍ ذهبَ الاطمئنانُ من قلبِ هشامٍ وأخذَ يتَّجهُ إلى إِخراج الإِمامِ زيدٍ والتشنيعِ على آلِ البيتِ ثمَّ تركَ لولاتِهِ التَّحريضَ عليه.

فلما اشتدَّ أَذَى خالدِ بْنِ عبدِ الملكِ بْنِ الحارث والي المدينةِ لزيدٍ ذهبَ إلى دمشقَ لمقابلةِ هشامِ ابْنِ عبدِ الملكِ. واستأذنَ للدّخولِ عليه فَلَم يأْذنْ لَهُ فَأَرسلَ إليهِ ورقةً بها طلبُ الإِذنِ، فكتبَ هشامٌ في أسفلِهَا (ارجعْ إلى منزِلكَ)... وتكرّرَ ذلك وزيدٌ يقولُ (والله لا أَرجعُ إلى خالدٍ أَبدًا). وأَخيرًا أَذنَ لَهُ وأَمرَ خادمًا أن يتبعَهُ ويحصي عليهِ ما يقولُ: فسمعَهُ يقولُ: والله لا يحب أحدٌ الدّنيا إلا ذُمَّ. ثمَّ صعدَ إلى هشام فحلفَ لَهُ على شيءٍ فقالَ: لا أُصدّقكَ. ثمّ قالَ لهُ متحدّيًا: بلغني يا زيدُ أَنَّكَ تذكرُ الخلافةَ وتتمنَّاها ولستَ أَهلًا لها، وأنتَ ابنُ أَمةٍ. عندها أجابَهُ زيدٌ: إِنَّه ليسَ أَحدٌ أَولى بالله، ولا أرفعَ درجةً عندهُ من نبيٍّ اتَّبعتُه، وقد كانَ إسماعيلُ (ع) ابن أَمةٍ، فاختارَهُ الله تعالَى وأَخرجَ منهُ خيرَ البشر. وما على أَحدٍ من ذلكَ إذا كان جدُّهُ رسولُ الله (صلى الله عليه وسلم) وأبوهُ عليُّ بنُ أَبي طالبٍ. فقالَ له هشامٌ: اخرجْ: فقال له: أَخرُجُ ثمَّ لا أكونُ إلا بحيث تكرهُ.

هذا أَقصَى غاياتِ الإِحراجِ. يذهب إليهِ الإِمامُ زيدٌ فيشكو أَمرَهُ فيكونُ الأَذَى والسب والنيلُ منهُ ومن آبائِهِ. لذلك نرى أَنَّ زيدًا لم يخرجْ إلا لأَنَّهُ أُحرجَ وأُوذيَ في دينِهِ ومروءَتِهِ.

قالَ الأصفهاني في مقاتلِ الطَّالبيّين: إنَّ أَهلَ الكوفةِ حَمَلُوا زيدًا على الخروجِ وقالُوا له وَهُوَ خارجٌ عنهمْ عائدًا إِلى المدينةِ: أَينَ تخرجُ عنا رحمَكَ الله ومعكَ مئةُ أَلفِ سيفٍ مِنْ أَهلِ الكوفةِ والبصرةِ وخراسانَ، يضربونَ بني أُميّةَ بها دونك، فأبى عليهِمْ، فما زالُوا يناشدونَه حتَّى رجعَ إليهمْ بعد أن أعطوه العهود والمواثيق. فقال له محمد بن عمر: اذكرك الله يا أبا الحسن لما لحقت بأهلك ولم تقبل قول أحد من هؤلاء الذين يدعونك، فإنهم لا يفون لك، أليسوا أصحاب جدك الحسين ابن علي؟ لكنَّ الَّذي حملَه على

الرّجوعِ إخلاصُهُ لله، وصلاحُ الأمة الذي ينشد بعدما عرف من سوء سلوكِ هشام في عدم تطبيقِ الإسلامِ وبعدما وجَدَ سوءَ معاملَته لَهُ وتحرّيهِ إهانَتهُ.

اتجهَ عندها والي العراقِ يوسف بن عمر إلى طلبِ الإمامِ زيدٍ وَمَنْ مَعهُ. وكانَ لا بدَّ لزيدٍ من أَنْ يظهرَ، ولا بدَّ لَهُ من أَنْ يتقدّمَ، لذلك دعَا أتباعَهُ الَّذينَ بايعُوهُ. لكنَّهُمْ ما إنْ رأَوا الشّدةَ حتَّى أَخذُوا يتناقشونَ ويتجادلُونَ ويتعرّفون لرأيهِ.. ولننقلْ تلك المناقشةَ كما روْتها كتبُ التَّاريخ.

قالُوا لَهُ: ما قولُكَ يرحمُكَ الله في أَبي بكر وعمرَ؟

قالَ: إنَّ أشدَّ ما أَقولُ فيمنْ ذكرتُمْ أَنَّا كنَّا أحقَّ الناسِ بهذَا الأَمر، لكنَّ القومَ استأثرُوا علينَا بهِ، ودفعُونَا عنهُ، ولمْ يبلْغ ذلك عندنَا كفرًا، وقد وُلُّوا وعدلُوا وعملوا بالكتابِ والسنَّةِ.

قالُوا: فَلِمَ تقاتلُ هؤلاء إذنْ؟ يشيرُونَ إلى هشام بْنِ عبدِ الملكِ وَمَنْ معهُ.

قالَ: إنَّ هؤلاء ليسوا كأُولئِكَ، إن هؤلاءِ ظلمُوا الناسَ وظلمُوا أَنفسَهُمْ، وإِنّي أَدعُو إلى كتابِ الله وسنَّةِ نبيّهِ وإحياءِ السّننِ وإماتة البِدَعِ، فَإِنْ تسمعوا خيرٌ لكمْ ولي، وإِنْ تأبَوْا فلستُ عليكمْ بوكيلٍ. وبلَغ يوسف بن عمر أن دعاة زيد يجوبون الآفاق يدعون الناس إلى بيعته ، فبعث الحكم بن الصلت وأمَرَهُ أن يجمع أهل الكوفة في المسجد الأعظم فيحصرهم فيه، فبعث الحكم إلى العرفاء والشرط والمناكب والمقاتلة فأدخلوهم المسجد ثم نادى مناديه، أيما رجل من العرب والموالي أدركناه في رحبة المسجد فقد برئت منه الذمّة. ائتوا المسجد الأعظم. فأتى الناسُ المسجد يوم الثلاثاء أي قبل أول يوم من صفر سنة اثنتين وعشرين ومئة وهو الأجل الذي وعَدَ فيه زيدٌ أصحابَهُ للخروج.

ولما كانت الواقعة، لم يجدْ زيدٌ من حوله إلاَّ مئتين وثمانية عشر رجلًا في حين أن أهل الشام كانوا اثني عشر ألفًا.. ومع ذلك فقد تقدّم عترة النبي إلى الميدان، بذلك العدد القليل يواجهُ ذلك الجيش اللجب الذي يجيئه المدَدُ في كل وقت، وقاتَلَ ومن معه حتى أصابوا من كثرة عدوهم كثيرًا، ولم يستطع أن يهزمهم إلاَّ بالسهام، وقد رُميَ زيدٌ بسهم فأصاب جانب جبهته اليسرى واستقرَّ فيها، فرجع ومن بقي معه إلى دار حرّان بن أبي كريمة، وكان ذلك في المساء، فجاؤوه بطبيب يقال له سفيان مولى لبني دواس، فقال له: إنّك إن نزعته من رأسك متَّ. قال: الموت أيسر عليَّ مما أنا فيه. فساعة انتزعه مات سلامُ الله عليه. وحَمَلَهُ أصحابه ودفنوه في العباسية، ثم أجروا على قبره الماءَ حتى لا يعرف. ورآهم نبطيٌّ كان يسقي زرعًا

له، فجاءَ يوسف بن عمر يخبره عن مكان دفنه فأرسل إليه من يستخرجه، ولقد كانَ صنيعُ هشامٍ في جثتِهِ هُوَ عينَ صنيعِ يزيدَ وابنِ زيادٍ في جدّهِ الحسين سلام الله عليهِ. فقد مُثِّلَ بجثَّتِهِ بَعْدَ أَنْ أخرج جثمانه إذ نصبُوهُ مصلوبًا بكناسةِ الكوفة بأَمر هشامِ بْنِ عبدِ الملكِ بْنِ مروانَ، وقد صلب معه معاوية بن إسحاق، وزياد الهندي، ونصر بن خزيمة العبسي.

عمر بن عبد العزيز

لَقَدْ أرَدْنا أنْ نأتيَ على ذكر الخليفةِ عمرَ بنِ عبدِ العزيز رَضِي الله عَنْهُ لأمورٍ ثلاثةٍ:

أولًا: إنَّ عُمَر بْنَ عبدِ العزيز رضي الله عَنْهُ أتى بَعْدَ ظُلْمَةِ النّزاعِ الذي حَصَلَ بينَ المسلمينَ فأشرَقَ بقولِه وفعلِهِ في قُلُوبهم نورُ المحبَّةِ والأُلْفَةِ. وأعادَ إلى أذهانِهم قولَ وفعلَ الرسول الكريمِ وخصوصًا السيرةَ الطيّبَةَ التي كانَ يحيا عليها الخُلفاءُ الراشدونَ، ومِنْها المودَّةُ الصّادِقَةُ التي كانت بَيْنَهُمْ وبينَ أهل بيتِ رسولِ الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بحيثُ أعادَ إليهم ما استطَاع مِنْ حقوقهم التي فقدوها.

ثانيًا: أزالَ الحواجزَ الماديَّةَ والمعنويَّةَ بينه وبينَ المسلمين بعدما أَيقَنَ المسلمون أن بني أميّة اتخذوا لهم حقوقًا وامتيازات لا يحقّ لأحد من المسلمين أَنَّ ينازعهم فيها أو أنْ يَرْقى لَها، أو يطمح إليها، ما دامت مخصَّةً لَهُمْ دونَ سواهُمْ. وعلى رأسِ هذه الامتيازاتِ كانَتِ الخلافة. فأزالَ عُمَرُ بنُ عبدِ العزيز جميعَ الفوارقِ التي كانَتْ بينَ بني أميَّةَ وحاشيتِهم مِنْ جهةٍ، وبينَ المسلمينَ مِنْ جهةٍ أُخرى، وَعندما أحسّ بعضُ بني أميَّةَ أَنَّ الأمرَ سَيُفْلِتُ مِنْ أيديهمْ في حال استمرارِ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ في الحكمِ، ذكرتْ كتبُ التاريخِ أنَّ بعضهم كادَ له وقَتَلَهُ بواسطةِ السُّمِّ، فماتَ مسمومًا.

ثالثًا: إنَّ الكثيرَ مِن النّاسِ يقيس الأمورَ جَمِيعَها قياسًا شُمُوليًّا.

والقياسُ الشُّموليُّ يُوقِعُ الإنسانَ في أخطاءَ جسيمةٍ إن استمرَّ المرء فيها استحالت عليهِ بعدَها العودةُ إلى جادَّةِ الصّوابِ، لأنّ تكرارَ القياسِ الشُّموليّ يُوجِدُ عندَهُ قاعدةً فكريَّةً يقيسُ عليها جميعَ الأفكارِ التي تُعرضُ عليهِ، فمثلًا عِندَما يذكرُ يزيدَ بنَ معاويّة أو هشامَ بنَ عبدِ الملكِ يردّدُ الذي يقيسُ القياسَ الشموليَّ من دونِ تفكُّرٍ ولا رويَّةٍ اللعنةَ على بني أميَّةَ وينسى عمر بنَ عبدِ العزيز الذي عدّه بعض أئمةِ المسلمينَ خامسَ الخلفاءِ الرّاشدينَ، وينسى أنَّ مِنْ بني أميَّةَ من جاهدَ بالله حقَّ جهادِهِ وأنَّ مِنْهُمْ من اتّقاهُ حقَّ تقاتِهِ، وأذْكرُ على وجهِ الخصوصِ معاويّةَ بنَ يزيد بن معاويّةَ، حيث قالَ: عِنْدَمَا وليَ الخلافةَ بعدَ أبيهِ يزيدَ: «أمّا بعدَ حمدِ الله والثناءِ عليهِ أيها النّاسُ فإنّا بُلينا بكمْ وبليتُمْ بنا، فما نجهل كراهَتَكُمْ لنا وطعَنَكُمْ

عَلَيْنَا. ألا وإنَّ جَدّي معاويّةَ بنَ أبي سفيانَ نازَع الأمرَ مَنْ كانَ أولى بهِ مِنْهُ في القرابةِ برسولِ الله، وأحقّ في الإسلامِ، سابقَ المسلمينَ، وأَوَّلَ المؤمنين وابنَ عمّ رسولِ الله، وأبا بقيةِ خاتمِ المرسلينَ، فَركبَ منكُمْ ما تعلَمُونَ، وركبتُمْ منهُ ما لا تُنْكُرونَ، حتى أَتَتْهُ مَنِيَّتُهُ وصارَ رَهْنًا بِعَمَلِهِ، ثُمَّ قَلَّدَ أَبي وكانَ غيرَ خليقٍ للخيرِ، فركبَ هواهُ واستحسن خطأَهُ، وعظمَ رجاؤهُ فأَخلَفَهُ الأملُ، وقَصَّرَ عنهُ الأجلُ، فَقَلَّتْ منعتُهُ، وانقطعتْ مُدَّتُهُ وصارَ في حُفْرَتِهِ رهنًا بذنبهِ وأسيرًا بجرمه». ثم بكى وقال: «إنَّ أَعْظَمَ الأمورِ عَلَيْنَا عِلْمُنا بسوءِ مَصْرَعِهِ وقبحِ مُنْقَلَبِهِ وَقَدْ قَتَلَ عِتْرَةَ الرَّسُولِ وأباحَ الحُرْمَةَ، وما أنا المتقلدُ أمورَكُمْ ولا المتحملُ تبعاتِكُمْ، فشأنكم أمركم، فوالله لئنْ كانَتِ الدُّنيا مغنمًا لقد نلْنا منها حظًّا وإن كانتْ شَرًّا فحسبُ آلِ سفيانَ ما أصابوا». أبعدَ هذا الموقفِ المشَرِّفِ من فتى لم يبلغ الثالثةَ والعشرين منَ العمر يجوزُ أن يُلْعَنَ ويقاسَ على أبيهِ يزيدَ قياسًا شموليًّا؟

كما أنَّهُ يجبُ على من يقيسُ القياسَ الشّموليَّ ألّا ينسى أن لا حقَّ لَهُ أنْ يُثْنِيَ على قبيلةِ قريشٍ كلها وإن كان منها سيدنا محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وبعضُ الصّحابةِ الكرامِ لأنَّ منها أيضًا أبا لَهَبٍ وأبا جهل والقرآن الكريم يقولُ: {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ} [المسد: 1] أيْ خَسِئَتْ وخَسرَتْ وَهُوَ عَمّ مِنْ أعمامِ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) والرسولُ الكريمُ يقولُ: سلمانُ منّا أهلَ البيتِ وَهُوَ فارسيٍّ مِن بلادِ فارسَ. وهكذا فالقياس الشموليُّ غير جائز في الإسلام أبدًا.

لهذه الأمورِ الثلاثةِ كانَ من الواجبِ أنْ نأتي على ذكر هذه الشَّخصيّةِ الإسلاميّةِ الفذّة التي دَخَلَت التاريخ من الباب العريضِ لجمعِ كلمةِ المسلمينَ وسجَّلَتْ صفحة ناصعة البياضِ في التاريخِ الإسلامي المجيد فإليكمْ نبذةً عنْ حياةِ هذهِ الشّخصيةِ الإسلاميّةِ الكريمة.

عمرُ بنُ عبد العزيز (رضي الله عَنْهُ)

هُوَ عُمَرُ بنْ عبدِ العزيزِ بنِ مروانَ بنِ الحكمِ بنِ أبي العاصِ بن أميّةَ بنِ عبد شمسِ بنِ عبدِ منافٍ القرشيّ الأمويّ، وأمُّهُ أمُ عاصم ليلى بنتُ عاصمِ بنِ الخطّابِ رضي الله عَنْهُ. وهُوَ التابعيُّ الجليلِّ الّذِي رُويَ عن أَنسِ بنِ مالكٍ وعبدِ اللهِ بنِ أبي طالبٍ وسعيدِ بنِ المسيّبِ وغيرهم من الفقهاءِ الأبرارِ أنه وُلِدَ في حلوانَ المعروفة من قرى مصرَ عام 61 للهجرة. وَلِيَ الخلافةَ عام 99 للهجرة ودامَت مدّةُ خلافتهِ سنتينِ وخمسةَ أشهر وتوفي عام 101 هجرية، وكانَ قد أنجب منَ الأولادِ تسعة ذكورٍ وثلاثَ أناثٍ.

وقصة خلافتِهِ يرويها رجاءُ بنُ حَيْوَة، يقول:

كانَ عبدُ الملكِ قد عهدَ إلى الوليدِ وسليمانَ أن يَجْعلا أخاهُما يزيدَ بنَ عبدِ الملكِ وليَّ عهدٍ، لكنَّ سليمانَ عهدَ إلى عمرَ بنِ عبدِ العزيز وَمِنْ بَعْدِهِ إلى يزيدَ بنِ عبدِ الملكِ.

وكتبَ سليمانُ كتابًا قبلَ وفاتِهِ جاء فيه: بسمِ الله الرحمنِ الرّحيمِ، هذا كتابٌ مِنْ عبدِ اللهِ سليمانَ أميرِ المؤمنينَ لعمرَ بنِ عبدِ العزيز. إنّي قَدْ وَلَّيْتُكَ الخلافةَ بعدِي وَمِنْ بعدِكَ يزيد بن عبد الملكِ». ثم كتبَ يوصي المسلمين:

«فاسمَعُوا لَهُ وأَطِيعُوا واتَّقُوا الله ولا تختلِفوا فيطمعَ فيكمْ». وبعثَ سليمان كتابه هذا معي قائلًا لي: «اذهبْ بكتابي إلى بني أميّةَ وأخبرْهُمْ وَمُرْهُمْ فيبايعوا مَنْ وَلَّيْتُهُ عَلَيْهِمْ». ففعلت. فدخلوا على سليمانَ وبايعوا عمرَ بنَ عبدِ العزيز رجلًا رجلًا وتَفَرَّقُوا ولم يكن حاضرًا حينذاكَ عمرُ بنُ عبد العزيز... فأتاني عمرُ بنُ عبدِ العزيز فقالَ: أخشى أنْ يكونَ سليمانُ قدْ أسْنَدَ إليَّ شيئًا من هذا الأمر فأنْشِدُكَ اللهَ وَحُرْمَتِي وَمَوَدَّتِي إلا أَعْلَمْتَنِي إنْ كانَ ذلكَ حتى استعفِيَهُ قبلَ أنْ تأتي حالٌ لا أَقدِرُ فيها على ذلك... قلت له: ما أنا بِمخْبِرِكَ حرفًا. فذهبَ عمرُ مُغْضَبًا.

ويتابع رجاء روايته فيقول: ولقيني هشامُ بنُ عبدِ الملكِ فقالَ: إنَّ لي بكَ حرمةً ومودةً قديمةً وعندي شكرٌ لكَ فأعْلِمْني بهذا الأمْرِ فإنْ كانَ إلى غيري تكلمت واللهِ عليّ ألّا أذكرَ شيئًا مِنْ ذلكَ أبدًا.

فأبيتُ أن أُخْبِرَهُ حرفًا. فانصرفَ هشامٌ. وَهُوَ يضربُ بإحدى يديهِ على الأخرى، ويقولُ: فإلى مَنْ إذًا نُجِّيَتْ عنّي؟ أتخرجُ من بني عبدِ الملكِ؟ وفي اليومِ الثّاني ماتَ سليمانُ بنُ عبدِ الملكِ فقرأتُ كتابَهُ أمامَ بني أميَّةَ، لما انتهيتُ إلى عمرَ بن عبدِ العزيز قالَ هشامٌ: لا نبايعُه واللهِ أبدًا قلتُ: اضربُ والله عُنُقَكَ قُمْ فبايعْ، فقامَ يجرُّ رجليهِ. وعندها تقدمت فأخذْتُ بيدِ عمرَ بنِ عبدِ العزيز فأَجلستُهُ على المنبر وهُوَ يقولُ: إنَّا للهِ وإنَّا إليه راجعونَ لما وقع فيه، ثُمَّ توجَّهَ إلى النّاسِ فحمدَ اللهَ وأثنى عليهِ وقالَ: أيها النّاسُ مَنْ صَحِبنَا فَلْيَصْحَبْنَا بخمسٍ وإلا فلا يقرَبْنا:

أولًا: يرفع لنا حاجةَ مَنْ لا يستطيعُ رفعها.

ثانيًا: أنْ يُعيننا على الخير بجهدِهِ.

ثالثًا: أَنْ يَدُلَّنا من الخيرِ على ما نهتدِي إليه.

رابعًا: أنْ لا يغتابنَّ أحدًا.

خامسًا: أَنْ لا يعترض فيما لا يَعْنِيهِ.

وبعد هذا الخطابِ انقشعَ عنهُ الشُّعراءُ والندماءُ وَثَبَتَ عِنْدَهُ الفُقَهَاءُ وقالوا: ما يسعُنا أَن نفارقَ هذا الرَّجُلَ حتّى يخالفَ قولَهُ فِعْلُهُ».

وبعد أن ولي عمرُ بن عبد العزيز أحضرَ قريشًا ووجوهَ النّاسَ فقالَ لَهُمْ: إنَّ فَدَكَ كانتْ بيدِ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فكانَ يضعُها حيثُ أراه اللهُ، ثُمّ وليها أبو بكرٍ كذلكَ وعمر كذلك ثم أقطعها مروان ثُمَّ إنها صارت إليَّ ولم تكنْ مِنْ ما لي أعود منها عليَّ وإني أشهِدُكُمْ أني قَدْ رَدَدْتُها على ما كانت عليهِ في عهدِ رسولِ اللهِ على أهلِ بيتهِ.

وإنَّ فعلَهُ هذا قد جعل المرتزقة يغيبون مِن حوله وينقطعون عنه لأنهم يئِسوا مِن الظُّلْمِ، ولقد قالَ لمولاه مزاحمٍ في أمر فدك: إنَّ أهلي أَقْطَعُوني ما لم يكنْ إليَّ أنْ آخُذَهُ ولا لَهُمْ أَنْ يُعْطونيهِ وإنّي هَمَمْتُ بِرَدِّهِ على أربابِهِ. فقالَ مزاحمٌ: فكيفَ تصنعُ بولدِكَ؟ فَجَرَتْ دموعُهُ وقالَ (أَكِلُهُمْ إلى اللهِ) وَهُمْ بينَ رَجُلَيْنِ إما صالحٌ فاللهُ يتولى الصّالحينَ وَإما غيرُ صالحٍ فما كنتُ لأُعِينَهُ على فسقِهِ.

ومن مآثره ما قاله لنسائِهِ: «قَدْ شُغِلْتُ بما في عُنُقِي مِنْ مبايعةِ المسلمينَ عَنق النّساءِ» وَخَيَّرَهُنَّ بينَ أَنْ يُقمْنَ عندَهُ أوْ يفارقْنَهُ فبكَيْنَ واخترْنَ المقامَ عندَهُ، والتفت إلى امرأتِهِ فاطمةَ بنتِ عبدِ الملكِ وقالَ:

إنْ أردتِ صُحْبَتِي فردّي ما مَعَكِ مِنْ مالٍ وَحُليٍّ وجواهرَ إلى بيتِ مالِ المسلمينَ فإنّهُ لَهُمْ، فإنَّني لا أجتمعُ أنا وأنتِ وهُوَ في بيتٍ واحدٍ، فَرَدَّتْهُ جميعَهُ، فلما تُوفِي عمرَ وَوَلِي أخوها يزيدُ بنُ عبدِ الملكِ ردَّهُ عَلَيْها، وقالَ: أنا أعْلَمُ أنَّ عمرَ بنَ عبدِ العزيزِ قدْ ظَلَمَكِ فقالَتْ لهُ: كلا واللهِ، وامتنعَتْ مِنْ أخذِهِ، وقالت: ما كنتُ أطيعُهُ حيًّا وأعصيهِ ميتًا.

وأَخَذَ مِنْ جميعِ أهْلِهِ ما بأيديهم وسمّى ذلكَ مظالمَ. ففزعَ بنو أميَّة واشتكَوا إلى عَمَّتِهِ فاطمة بنتِ مروانَ، فأتَتْهُ، فقالتَ لَهُ، تكَلَّمْ يا أميرَ المؤمنينَ، فقال: إنَّ الله بعثَ محمدًا رحمةً للعالمينَ ولم يبعثْهُ عذابًا إلى النّاسِ كافَّةً ثمَّ اختارَ لَهُ ما عِنْدَهُ وتركَ للنّاسِ نهرًا شُرْبُهُمْ مِنْهُ سواءٌ، ثُمَّ استقى منهُ يزيدُ ومروانُ وعبدُ الملكِ ابنُه والوليدُ وسليمانُ ابنا عبدِ الملكِ، حتى أفضى الأمرُ إليَّ، وَقَدْ جفَّ النّهرُ الأعظمُ ولمْ يَعُدْ يَرْوِي أَصْحابَهُ حتّى يعودَ إلى ما كانَ عليهِ. فقالَتْ: حَسْبُكَ فَهِمْتُ كلامَكَ، لكنَّ بني أميَّةَ يحذرونَكَ يومًا من أيّامِهِمْ، فغضبَ وقالَ: كلُّ يومٍ لا أخافُهُ إلا يومَ القيامةِ. فَرَجَعَتْ إليهِمْ فأخبرَتْهُمْ وقالَتْ: أَنْتُم فَعَلتُمْ هذا بأنفُسِكُمْ فَتَزَوَّجْتُمْ بنتَ عمرَ بنِ الخطابِ، فجاءَ يُسْبِهُ جَدَّهُ. فَسَكَتُوا. وقالتْ فاطمةُ امراتُهُ: دخلت عليهِ يومًا وَهُوَ في مصلاهُ ودموعُهُ تجري على لحيتِهِ، فقلتُ: أَحَدَثَ شيء؟ فقالَ: إنّي تقلّدْتُ أمَر أمَّة محمدٍ (صلى الله عليه وآله وسلم) فتفكرْتُ في الفقير الجائع، والمريضِ الضائعِ، والغازي المجاهدِ في سبيلِ اللهِ، والمظلومِ المقهور، والغريبِ الأسير، والشيخِ الكبير، وذي العيالِ الكثير مَعَ المالِ القليلِ، وأشباهِهِمْ في أَقطارِ الأرضِ، فَعَلِمْتُ أَنَّ ربّي سيسألُني عَنْهُمْ يومَ القيامةِ، وأَنَّ خَصْمي دُونَهُمْ محمدٌ إلى اللهِ فَخَشِيتُ أنْ لا تَثْبُتَ حُجَّتي عندَ الخصومةَ فرحمتُ نَفْسي فَبَكَيْتُ.

وكانَ يجلسُ طويلًا للنَّظَرِ في أمورِ المسلمينَ، ويقولُ لأصحابِهِ: إنَّ المشوَرَةَ والمناظَرَةَ بابُ رحمة، ومفتاحُ بركة، لا يضلُّ معهما رأيٌ ولا يقعدُ معهما حزمٌ ولكلِّ شيءٍ معدنٌ، ومعدنُ التقوى قلوبُ العاقلينَ، لأنّهُمْ عَقَلُوا عَنِ الله فاتَّقَوْهُ في أمره ونَهْيِهِ.

ولما سُئِلَ رأيَهُ في الخلافِ الّذي وقعَ بينَ عليّ ومعاويةَ قالَ: تلكَ فتنةٌ عصمَ الله منها سيوفَنَا، أفلا نَعْصِمُ منها أَلْسنتَنا؟

وروى عمرُ بن عبدِ العزيزِ بنفسِهِ تعلّقَهُ بأهلِ بيتِ رسولِ الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وحبَّهُ لعليِّ بنِ أبي طالبٍ، فقالَ:

كنتُ بالمدينةِ أتَعَلَّمُ عندَ عبيدِ الله بنِ عبدِ الله بنِ عُتْبَةَ بنِ مسعودٍ فَبَلَغَهُ عَنّي شيءٌ مِنْ ذلكَ، فأتيتُهُ يومًا وَهُوَ يُصَلي فأَطالَ الصّلاةَ فقعدْتُ انتظرُ فراغَهُ، فلما فرغَ مِنْ صلاتِهِ الْتَفَتَ إليَّ، فقالَ لي: متى عَلِمْتَ يا عمُر أنَّ اللهَ غضبَ على أهلِ بَدْرٍ وبيعةِ الرّضوانِ بَعْدَ أنْ رَضِي عَنْهُمْ.

قلتُ لَهُ: لَمْ أَسْمَعْ ذلكَ. قالَ: فَما الّذِي بلغني عَنْكَ فِي عَليّ بن أبي طالبٍ؟ فَقُلْتُ: معذرةً إلى اللهِ وإليكَ. وتركتُ ما كنتُ عليهِ مِنْ شَتْمِ عَلي، وكانَ أبي إذا خطبَ فنالَ مِن عَلي رضي الله عنه تَلَجْلَجَ، فَقُلْتُ: يا أبي إنَّكَ تمضِي فِي خُطْبَتِكَ، فإذا أتَيْتَ على ذكرِ عليٍّ عَرَفْتُ مِنْكَ تقصيرًا قالَ: أَوَ فَطِنْتَ لذلكَ يا بنيَّ؟ قلتُ: نعم: قال: يا بنيَّ! إنَّ الذينَ حَوْلَنَا لَوْ يعلمونَ مِنْ علَيٍّ ما نعلمُ تفرّقُوا عَنَّا إلى أولادِهِ».

ولما ولي عمر الخلافةَ لَمْ يَكُنْ عندَهُ من الرّغبةِ في الدّنيا إلا أنْ كَتَبَ إلى عمالِهِ في الآفاقِ أنْ يستبدِلوا بشَتْمَ عليّ بن أبي طالبٍ على المنابر آيةً مِنْ كتابِ الله: {إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} [النحل: 90].

فحلَّ هذا الفعلُ عند النّاسِ محلًا حَسَنًا وأكثروا مَدْحَهُ بسببِه فمنْ ذلكَ قولُ كُثَيرِ عَزَّة:

وُليتَ فلمْ تَشْتُم علِيًّا ولمْ تخِفْ ... بريًّا ولم تَتْبَع مقالة مُجرِمِ
تكلَّمتَ بالحقِّ المبينِ وإنّما ... تُبيّنُ آياتِ الهدى بالتكلُّمِ
وصدَّقْتَ معروفَ الّذي قلت بالذي ... فعلتَ فأضحى راضيًا كلُّ مُسْلِمِ

فقالَ عمرُ حينَ أنشدَهُ هذهِ الأبياتِ مِنَ الشّعْرِ: أفْلَحْنا إذًا والحمدُ للهِ.

وعندما انتقلَ زينُ العابدين عليُّ بنُ الحسينِ سلامُ الله عليهِ إلى الرّفيقِ الأعلى قالَ عمرُ بنُ عَبْدِ العزيزِ رَضِيَ الله عنهُ: ذهبَ سراجُ الدّنيا وجمالُ الإسلامِ وزينُ العابدينَ، وردَّدَ قولًا لزين العابدين: «كُلُّكم سيصيرُ حديثًا فمن استطاع أن يكون حديثًا حَسَنًا فليفعلْ» ثم تابع قائلًا: اللّهُمَّ قَدّرْنا أنْ نكونَ بَعْدَ وفاتِنا حديثًا حَسَنًا. ولقد كتب عمر إلى محمد الباقر ابن زين العابدين يخْبَره. فردَّ عليه محمدٌ الباقرُ بكتابٍ يعظُهُ ويخوِّفُهُ. فقالَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ: لَقَدْ كَتَبَ إلى سليمانَ بنِ عبدِ الملكِ مِنْ قَبْلُ أخْرِجُوهُ لي حَتَّى أَنْظُرَ ماذا كتَبَ لَهُ. فَوَجَدَ في الكتابِ كلامًا غيرَ الذي كتب لَهُ فأُنْفَذَ إلى عاملِ المدينةِ وقالَ لَهُ اذهبْ إلى

محمدٍ الباقرِ وَقُلْ لَهُ: هذا كتابُكَ إلى سليمانَ. وَهذا كتابُكَ إلى عُمَرَ بنِ عبدِ العزيزِ يختلفُ كل منهما عنِ الآخرِ فلمَ هذا التبايُنُ؟. فنقلَ عاملُ المدينةِ إلى محمدٍ الباقرِ ما كتَبَهُ عُمَر بنُ عبدِ العزيز، فقالَ محمدٌ الباقرُ: إنَّ سليمانَ بنَ عبدِ الملكِ كانَ جَبّارًا في الأرض فكتبتُ إليه بما يُكْتَبُ إلى الجبّارينَ، وإنّ صاحِبَكَ أظهرَ الصّلاحَ والإصلاحَ فكتبتُ إليهِ بما شاكَلَهُ فكتبَ عاملُ المدينة إلى عمرَ بذلكَ فقالَ عمرُ: إنَّ أهلَ هذا البيتِ لا يُخْلِيهِمُ اللهُ مِنْ فَضْلٍ.

وكانت فاطمةُ بنتُ الحسين (ع) بنِ عليّ تُثْنِي عَلَيْهِ وتقولُ: لَوْ بَقِيَ لَنَا عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ ما احتجنا بعهدهِ إلى أحدٍ.

وفي عهدهِ عاشَ النّاسُ في رخاءٍ وبحبوحةٍ مِنَ العَيْشِ لَمْ يَشْهَدْهُ التاريخُ القديمُ ولا الحديثُ بحيثُ ذُكِرَ أنَّهُ أرسلَ الجباةَ إلى شمالِ أفريقيا وأوصاهُمْ أنْ يَجْبُوا الزّكاةَ مِنَ الأَغْنِياءِ ويوزّعوها على فقرائهم، فكتبَ إليه الجباةُ: لَقَدْ جبينا الزّكاةَ مِنَ الأَغنياءِ لكنَّنا لم نجدِ الفقراءَ فكتبَ لَهُمْ: ضَعوا الأموالَ في بيوتِ الله وعلى الطّرقاتِ لعل الإسلامَ أوجدَ عندَ النّاسِ حياءً على الاستعطاء.

وفي السّنةِ المئة والواحدة هجرية أي في أواخر حياتهِ خرجَ شوذبٌ الخارجيُّ واسمُهُ بسطامٌ من بني يشكر وكانَ في ثمانينَ رجلًا، فكتبَ عمرُ بنَ عبدِ العزيزِ إلى عبد الحميدِ عامِلِهِ في الكوفةِ ألّا يجابَهُمْ حتى يسفكوا الدماءَ أو يُفْسدوا في الأرض فإنْ فَعَلُوا وَجَّه إليهم رجلًا شديدًا حازمًا في جندٍ، فَبَعَثَ عبدُ الحميد محمدَ بنَ جريرٍ في ألفَيْنِ مِنَ الجندِ وأمَرَهُ بما كتبَ بهِ عُمَرُ. وأرسلَ عُمَرُ بنُ عبدِ العزيزِ إلى بسطامٍ الخارجيّ يسألُهُ عن سبب خروجهِ ويقولُ له: بلغني أَنَّكَ خَرَجْتَ غضبًا لله ولرسوله ولستَ أولى بذلكَ مني فهلم إليَّ أناظركَ فإنْ كانَ الحقُّ بأيدينا دخلتَ فيما دخلَ الناسُ، وإنْ كانَ في يدِكَ نَظَرْنا في أمركَ.

فكتبَ بسطامٌ إلى عمرَ: قَدْ أنصفتَ وَقَدْ بَعَثْتُ إليكَ رجلينِ يُدارِسانِكَ ويناظرانِكَ وهما مولّى لبني شيبانَ كان حَبَشِيًّا واسمُهُ عاصمٌ ورجلًا من بين يشكرَ أيْ مِنْ قبيلتِهِ، فقدِما على عمرَ حتى أتياه، فقالَ لهما: ما أخْرَجكُما هذا المخرجَ وما إلي نَقِمْتُم؟ فقالَ عاصمٌ: ما نَقِمْنا سيرتَكَ، إنَّكَ لَتَتَحَرّى العدْلَ والإحسانَ فأخبرْنا عن قيامِكَ بهذا الأمرِ (أيْ بأمرِ الخلافةِ) أن رضًى من النّاس ومشورةٍ أمْ ابتَزَزْتُمْ أمرَهُمْ؟ فقالَ عمر: ما سألتُهُم الولايةَ عَلَيْهِمْ ولا غَلَبْتُهُمْ عَلَيْهَا وعهدَ إليَّ رجلٌ كانَ قبلي فَقُمْتُ وَلَمْ يُنْكِرْهُ عليَّ أحدٌ ولم يكرهْهُ غيرُكم وأنتمْ تَرَوْنَ الرضَا بكلِّ مَنْ عدلَ وأنصفَ أيًّا كانَ منَ النّاسِ فإنْ خالفتُ الحقَّ ورغبتُ عَنْهُ فلا طاعةَ لي عَلَيْكُمْ.

قالا: بَيْنَنا وبينكَ أمرٌ واحدٌ. قالَ: ما هُوَ؟

قالا: رأينا، خالفتَ أعمالَ أهلِ بيتِكَ، وسمَّيْتَها مظالمَ، فإنْ كُنْتَ على هُدىً وهمْ على الضّلالةِ فالعَنْهُمْ وأبرأْ منهم.

فقالَ عمرُ: قد علمتُ أنّكُمْ لم تخرجوا طلبًا للدّنيا ولكنّكُمْ أَرَدْتُمْ الآخرة فأخطأتُمْ طريقَها، إنَّ اللهَ عَزَّ وجلَّ لم يبعثْ رسولَهُ لعانًا، وقالَ النبيُّ إبراهيم سلامُ الله عليه {فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [إبراهيم: 36] وقال اللهُ عزَّ وجلَّ {أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ} [الأنعام: 90] وَقَدْ سَمَّيْتُ أعمالَ أهلِ بيتي ظلمًا وكفى بذلكَ ذمًّا ونقصًا، وليسَ لعنُ أهلِ الذّنوبِ فريضةً لا بدَّ منها، فإنْ قُلْتُمْ إنها فريضةٌ فاخبرْني يا عاصمُ متى لَعَنْتَ فِرْعَوْنَ؟

قال عاصمٌ: ما أذكرُ متى لَعَنْتُهُ.

قالَ عمرُ: أَفَيَسَعُكَ أنْ لا تلعنَ فرعونَ وَهُوَ أخْبَثُ الخلقِ وشرُّهُمْ ولا يسعُنِي أنْ لا ألْعَنَ أهْلَ بيتي وَهُمْ مصلّونَ صائمون؟

قالَ عاصمٌ: أليسَ أهْلُ بيتكَ كفارًا بظلمِهِم الّذِي ظَلَمُوهُ؟

قالَ عمرُ: لا، لأن رسولَ اللهِ (صلى الله عليه وآله وسلم) دعا النّاسَ إلى الإيمان فكانَ من أقرَّ بِهِ وبِشرائِعِهِ قُبِلَ مِنْهُ فإنْ أحْدَثَ حَدَثًا أقيمَ عليهِ الحدُّ: فقالَ الخارجيُّ: إنَّ رسولَ اللهِ (صلى الله عليه وآله وسلم) دعا النّاس إلى توحيد اللهِ والإقرارِ بما نزل من عندِهِ.

قالَ عمرُ: فليسَ أحدٌ مِنْهُمْ يقولُ لا أعملُ بسنَّة رسولِ اللهِ ولكنَّ القومَ أسْرَفُوا على أنْفُسِهِمْ على علمٍ منْهُمْ أَنَّهُ مُحَرَّمٌ عَلَيْهِمْ وَغَلَبَ عَلَيْهِمْ السَّفَهُ.

قالَ عاصمٌ: فابدأ مما خالفَ عَمَلَكَ وَرُدَّ أحْكامَهُمْ.

قال عمرُ: أخبراني عن أبي بكرٍ وعمرَ أليسا على حقٍّ؟

قالا: بلى.

قال: أتعلمانِ أنَّ أبا بكرٍ حينَ قاتلَ أهلَ الرّدَّةِ سفكَ دماءَهُمْ وسبى الذراري وأخذَ الأموال؟

قالا: بلى.

قال: أتعلمانِ أنَّ عمرَ ردَّ السّبايا بعدَهُ إلى عشائرِهم بفدْيَةٍ.

قالا: نعم.

قال: فهلْ برئ عمرُ منْ أبي بكرٍ؟

قالا: لا.

قال: أفتبرؤونَ أنْتُمْ مِنْ واحدٍ منهُما؟

قالا: لا.

قال اليشكريُّ: يا عمرُ أرأيتَ رجلًا وليَ قومًا وَأمْوالَهُمْ فعدلَ فيها ثمَّ صَيَّرَها بعدَهُ إلى رجلٍ غيرِ مُؤَمَّنٍ، أتراه أدّى الحقَّ الذي يلزمُهُ للهِ عَزَّ وجَلَّ، أو أتراه قد سَلِم؟

قالَ عمرُ: لا.

قالا: فَتُسَلِّمُ هذا الأمرَ إلى يزيدَ بنِ عبدِ الملكِ من بعدكَ وأنْتَ تعرِفُ أنَّهُ لا يقومُ فيهِ بالحقِّ؟

قالَ عمرُ: إنَّما ولاه غيري يعني بهِ (سليمانَ بنَ عبدِ الملكِ) والمسلمونَ أولى بما يكونُ مِنْهُمْ فيهِ بعدِي.

قالَ اليشكريُّ: أفترى ذلكَ مِن صُنْعِ مَنْ ولاه حقًّا؟

فبكى عمرُ وقالَ أَنظِراني ثلاثًا، فخرجا مِنْ عِنْدِهِ ثم عادا إليه فقالَ عاصمٌ: أشهدُ أنَّك عَلى حقٍّ.

فقالَ عمرُ لليشكري: ما تقولُ أَنْتَ؟

قالَ: ما أحسنَ ما وَصَفَت ولكنّي سأعرِضُ الأمرَ على المسلمينَ وأعْلَمُ ما حُجَّتُهُمْ.

فكانَ عُمَرُ بنُ عبدِ العزيزِ رضي اللهُ عَنْهُ بعد هذا الحوارِ الذي دارَ بَيْنَهُ وبينَ الخوارجِ يقولُ: أَهْلَكَنِي أمرُ يزيد بن عبدِ الملك وخُصِمْتُ فيهِ فأستغفِرُ اللهَ. فخافَ بنو أميّةَ بعدَ أنْ سَمِعُوا مِنهُ مثلَ هذا القولِ أنْ يخرجَ لأمر مِنْ أيديهم وَأَنْ يخلعَ عمرُ بن عبد العزيز يزيدَ بنَ عبدِ الملكِ مِنْ ولاية العهدِ فتضيعَ عليهم جميعُ امتيازاتِهِم الّتي فقدُوها في عهدِ عمرَ، فقيلَ إنّهم ائتمروا في ما بَيْنَهُمْ وَوَضَعُوا على عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ مَنْ سقاهُ سمًّا فلم يلبثْ بَعْدَ ذلكَ إلا ثلاثًا حتى مرضَ وماتَ رَحِمَهُ اللهُ.

وحينَ سَمِعَ مُحَمَّدٌ الباقرُ سَلامُ اللهِ عليهِ، بخبرِ وفاتِهِ قالَ: إنَّ لكلِّ قومٍ نجيبةً وإنَّ نجيبةَ بني أميَّةَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ، وإنَّهُ يُبْعَثُ يومَ القيامةِ أُمَّةً وحدَهُ وقالَ سفيانُ الثَّوْرِيُّ رضي الله عنه: الخلفاءُ خمسةٌ:

أبو بكرٍ وعمرُ وعثمانُ وعليٌّ وعمرُ بنُ عبدِ العزيزِ وما كانَ سواهُمْ فهم منتزون[10] وبهذا قال الإمام الشافعيُّ رضي اللهُ عنهُ.

وبَهذهِ السّيرة العَطِرَةِ لِعُمَر بنِ عبدِ العزيز رضيَ الله عَنْهُ أَحْبَبْنا أنْ نختمَ كتابَنا هذا مع أنَّه كانَ متقدّمًا في خِلافتهِ عَنْ هشامِ بنِ عبدِ الملكِ، كي نجعلَ خاتمةَ هذا الكتابِ خاتمةَ وفاقٍ وصلاح وإصلاحٍ إنْ شاءَ اللهُ، وكي نُذَكِّرَ القادةَ والموجهين بالرعايةِ الطَّيِّبَةِ لشؤونِ المسلمينَ، وندعوَهُمْ للاقتداءِ بهذهِ الشَّخْصِيَّةِ الكريمةِ التي عملت مخلصةً لوجهِ الله فجمعتْ وَلَمْ تُفَرِّقْ وقالتْ كلمةَ الحقِّ على نفسِها وعلى أقربِ الناسِ إليها، وأزالت الفوارقَ في المجتمع الإسلامي فأحَبَّها المسلمون جَمِيعًا. والمسلمونَ اليوم عليهمْ ألّا ييأسوا من رحمةِ اللهِ ومنْ قادَتِهمْ وموجهيهمْ لأنَّ في المسلمينَ خيرًا كثيرًا، وصَدَقَ رسولُ اللهِ (صلى الله عليه وآله وسلم) حيث يقول: الخيرُ فيَّ وفي أمتي إلى يومِ الدين.

وهكذا نرى الخلفاء الراشدين ومن سار سيرهم يرجع بعضهم إلى بعض في جميعِ الأمورِ التي تهم المسلمينَ، وكانُوا جميعًا يحبونَ أهلَ بيت رسولِ اللهِ ويحبُّهُمْ أهلُ بيتِ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، إلى أَنْ وصل إلى الحكمِ معاوية وابنُهُ يزيد وهشام بْنُ عبدِ الملكِ، فبدأَتِ الفتنُ تعصفُ بوحدةِ المسلمينَ. وانتشرتْ روحُ الخصومةِ في الدّينِ، وقاسى ما قاساهُ أَهلُ بيتِ رسولِ اللهِ وَمَنْ شايعهُمْ.

لكنَّ الَّذينَ ينسِبُونَ الخصومةَ في الدّينِ منذُ تولى الخلافة أبُو بكرٍ وعمرُ بنُ الخطَّابِ وعثمانُ أَخْطَأُوا وانساقُوا وراءَ أَصحابِ النياتِ الخبيثة الَّذينَ ما أَرادُوا خيرًا لهذهِ الأُمّةِ يومًا مِنَ الأَيامِ.

فهذا عليٌّ سلامُ اللهِ عليهِ يسمّي أولادَهُ وفلذاتِ كبدِهِ بأسماءِ الَّذينَ أَحبَّهُمْ وصاهرهُمْ وتعاونَ معهُمْ. فسمَّى ولدًا أبا بكرٍ وولدًا عُمرَ وولدًا عثمانَ. هذا ما ذكرهُ العلامةُ السّيدُ محسن الأَمين رحمهُ الله في كتابهِ «أَعيان الشّيعة». كما أَنَّه أَتَى على ذكرِ أسمائِهِمْ مَعَ أسماءِ الذينَ استشهدوا مَعَ أَخيهمْ الإمامِ الحسينِ سلامُ اللهِ عليهم أَجمعينَ.

---

[10]منتزون: متسارعون إلى الشر.

وهذا العلامةُ الكبير السيد عبد الحسين شرف الدين رحمه اللهُ وأكرمَ مثواه وهو يُعدّ من أكابر مجتهدي المسلمين الشيعة في زمنه، ألقى خطبةً في المسجدِ العمري الكبير في بيروت عقدها على آياتٍ بيناتٍ من الذكرِ الحكيم وجرى فيها على نصوصٍ مأثورةٍ من الحديثِ الشريف وذلك في 19 ربيع الأول عام 1340هـ الموافق 19 تشرين الثاني عام 1921م إبَّان الاستعمار الفرنسي للبنان فقال:

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد للهِ على هدايتهِ لدينه، والتوفيق لما دعا إليه من سبيله وصلى اللهُ على سيد الخلق، والصادعِ بالحقّ. البشيرِ النذير. السراجِ المنير. الطُّهرِ الطاهر. العلَمِ الظاهر. الرسول المؤيَّد أبي القاسم محمد. وعلى أئمة الهدى، ومصابيح الدجى، والعروة الوثقى. وعلى من تبعهم بإحسانٍ ورحمة الله وبركاته.

أما بعد فإنه لا حياة لهذه الأمة، إلا باجتماع آرائها وتوحيد أهوائها، بجميع مذاهبها، ومختلف مشاربها، على إعلاء كلمتها: بإعلان وحدتها، في بنيان مرصوص، يشدُّ بعضُه أزرَ بعض. وجسم واحدٍ، إذا شكا منه عضوٌ أنَّت سائرُ الأعضاءِ. حتى ليكونَ المسلمُ في المشرقِ هو نفسُهُ في المغرب: عينُه ومرآتُهُ. دليلهُ ومشكاتُه. لا يخونهُ، ولا يخدعُه، ولا يظلمه، ولا يُسلمه.

بذلك يكون المسلمون أمةً واحدةً. وبه تكون خيرَ أُمةٍ أُخْرجت للناس، تأمرُ بالمعروف، وتنهى عن المنكرِ، وتعتصمُ بحبل اللهِ ولا تتفرق، كالذين فرقوا دينهم وكانوا شيعًا. واختلفوا بعدما جاءتهم البينات. وتنازعوا ففشلوا وذهبت ريحهم. فهم ليسوا من رسول اللهِ في شيء، وليس رسول اللهِ منهم في شيء.

وكيف يكونُ الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) منهم وقد تركوا حبل اللهِ. وحبل اللهِ دينُهُ القويم، وصراطه المستقيم، وفرقانه العظيم.

فالحذر، من هذا الخطرِ. وأي خطر أدهى من أن تبقى الفرقة فرقًا، والوحدةُ مزقًا والألفة أشتاتًا، والنفوسُ أمواتًا. وقد صحَّ عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أنه قال: «الدينُ النصيحة». قالوا: «لمن يا رسول اللهِ» قال: «للهِ، ولرسوله، ولكتابه، ولأئمةِ المسلمين، ولعامتهم فوالذي نفسي بيده، لا يؤمنُ امرؤ حتى يحِبَّ لأخيهِ ما يحبه لنفسه، ويكره له ما يكرهُ لها».

وصحَّ عنه صلوات اللهِ وسلامه عليه أنه قال: ذمَّةُ المسلمين واحدة. فمن أخفَر مسلمًا، فعليه لعنة اللهِ والملائكةِ لا يُقْبَلُ منه يوم القيامة صرف ولا عدل».

وإن من النصحِ للهِ ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم: إفشاء السلام، وإحلال الوئام. والإسلام جعلَ التحية المتبادلة: السلام عليك، وعليكم السلام.

وصح عنه صلوات اللهِ وسلامه عليه أنه قال: «واللهِ لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا. ولا تؤمنونَ حتى تحابّوا. ألا أدلكم على شيء إن فعلتموه تحابَبْتُم؟ أفشوا السلامَ بينكم».

ومن النصح: توحيد كلمة المسلمين. «وإن أمتكم هذه أمة واحدة» فلا تقولوا: «نحن سنّة وشيعة» بل قولوا: «نحن مسلمون» فالشيعة والسنّة فرقتهما السياسة، وتجمعهما السياسة، أما الإسلامُ فلم يفَرّقْ ولم يمزّقْ، الإسلامُ يجمعُ ويوحّدُ. وحَّدهما: بأشهد ألا إله إلا اللهَ، وأن محمدًا رسول اللهِ، وإن القرآن كتاب اللهِ. وجمعهما بإقامة الصلاة، وإيتاءِ الزكاة. وبصوم رمضان، وحج البيت الحرام. بإحياء ما أحياه الكتاب والسنّة وإماتة ما أماتاه، بتحقيق ما حققاه، وإبطال ما أبطلاه، ولا فرق بين السنّة والشيعة. إلا كالفرق بين مذهب ومذهب من المذاهب الأربعة. ولكل مذهب من هذه المذاهب. مفاهيم مستقاه من كتاب الله وسنّة رسوله. «ومن اجتهد فأخطأ فله أجر واحد، ومن اجتهد فأصاب فله أجران».

ذلك هو الإسلام السمح، فس محجته البيضاء، وشريعته السهلة السمحاء. فليكن المسلمون مسلمين، كما أراد الإسلام، سيرًا على محجته، والتزامًا بكتابه وسنّته.

أيها المؤمنون: إنكم مدعوون بحكم الإسلام وحكم القرآن، إلى وحدة لا تنفصم عروتها، وألفة لا يستباح ذمارها. فإلى الوئام، إلى الوحدة، تتسلقون بها معارج الشرف، وتطأون أعراف المجد، وتستجيبون إلى نداء اللهِ سبحانه: {إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ} [الأنبياء: 92].

{رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأبْرَارِ} [آل عمران: 193]. صدق الله العظيم.

وأخيرًا، بَعْدَ أنِ أطَّلَعْنا على أهم الأَسبابِ التي عصفت بهذه الأُمةِ نختمُ هذا الكتابَ بقولنا: إنّ من الواجب علينا كمسلمين، وخصوصًا في عصرنا هذا، أَنْ نردَّ زيغ الَّذين اتخذوا المذاهبَ الإسلاميةَ سبيلًا للتّضليلِ والعبثِ بالعقول وزيادة الشك.

وعلينا أن ننشرَ روحَ التَّسامحِ الإسلامي بين أهلِهِ، وبَيْنَ غيرِهِمْ مِنَ النَّاس.

وعلينا أنْ نَمْحُوَ روحَ الطائفيّةِ البغيضة، وأَنْ نقطع السّبيلَ على الَّذين يُروجونَ الخصومةَ في الدّين حتَّى يعودَ المسلمونَ كما كانُوا جماعةً واحدةً متعاونةً متحابّةً لا جماعاتٍ متعدّدةً متنابذةً متباغضةً، إذا اختلفوا يختلفون في الرأْيِ – إن وجد المجال – كآحادٍ لا كطوائفَ. وعليهم أنْ يتشبّهُوا بتسامحِ وتعاونِ الخلفاءِ الرّاشدينَ. وأَن يكونُوا كالذين قال اللهُ تعالى فيهِمْ: {وَالَّذِينَ جَاؤُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ} [الحشر: 10].

انتهى بعون الله

مراجع الكتاب

- القرآن الكريم.
- نهج البلاغة.
- أعيان الشيعة: السيد محسن الأمين.
- كتاب الإمام الصادق والإمام زيد: محمد أبو زهرة.
- الكافي: الكليني.
- الفقه على المذاهب الخمسة: محمد جواد مغنية.
- كتاب الفقه على المذاهب الأربعة: عبد الرحمن الجزيري.
- البداية والنهاية.
- كنز العمال: علاء الدين علي المتقي بن حسام الهندي.
-الكامل في التاريخ: لابن الأثير.
- تاريخ اليعقوبي.